

أبطال المنصورة

أبطال المنصورة

تأليف
إبراهيم رمزي



أبطال المنصورة

إبراهيم رمزي

رقم إيداع / ٢٠١٢ / ١٤٦٥٥
تدمك: ١ ٣٥ ٩٧٧ ٩٧٨ ٥١٧١

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦/٨/٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس:
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٧	للتاريخ
٩	أشخاص الرواية
١١	الفصل الأول
٣١	الفصل الثاني
٥٣	الفصل الثالث
٧٣	الفصل الرابع

للتاريخ

بقلم المؤلف

فبراير سنة ١٩٣٩

هذه ثالث رواية وضعتها وكان ذلك في سنة ١٩١٥ مطاوعة لشعور ابتعثه هُم المصريين يومئذ لتغيير القوم عاهليتهم بالرغم منهم، وإيقاظاً لنفسية كاد يتلفها ما كانوا يلقونه من المذلة والubit.

ولقد حاولت ما حاولت ليأذن الرقيب بتمثيلها فلم أفلح إلا في ١٩١٨، فقد تضافر موظفو قلم المطبوعات على رفضها والنيل مني ومنها عند رجال السلطة السياسية والعسكرية، فنالوا الحظوة لديهم كما أرادوا، وباءوا بعد ذلك بخزي من الله والوطن.

وأخيراً مثلتها فرقة الأستاذ عبد الرحمن رشدي لأول مرة في المنصورة، تكريماً للمدينة التي حدثت فيها واقعة التاريخ الذي أدونه لأبطالها في هذه القصة بقلم التجلة والإكثار بعد أن دونوه لأنفسهم بأثاث السيوف والرماح، وجعلوا صحفته نوراً للمستنيرين في الحق والوطنية، بَيْدَ أنها كانت مرة واحدة مثلت فيها، ثم رأيت من واجبي أن أنقل حق تمثيلها إلى فرقة ترقية التمثيل العربي التي كانت في مجرى الإنشاء يومئذ فتولت إخراجها في دارها بحديقة الأزبكية وأحسنت تمثيلها، ولكن لم تكن هذه الدار حرة يومئذ في العمل؛ إذ كانت هناك عوامل تزيغ الدراما لتحولها الروايات الغنائية، فاختفت هذه الرواية من الجو المسرحي المحترف، وإن لم تختف من مسارح الجماعات الهاوية.

وإذ كان من واجبي أن أنوه بحسنات المحسنين، فبفضل زعيم مصر الاقتصادي العظيم محمد طلعت حرب باشا؛ لأنه قَدَّر الرواية قدرها وغالى بها، وبفضل معالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا، «وكان يومئذ مديرًا لتحرير السياسة»؛ إذ عهدت إليه إدارة الشركة بقراءتها ودرسها، فأحسن الرأي فيها وأثنى واستحث على تمثيلها والاستزادة من أمثالها لتغذية الروح الوطنية في البلاد، وإمدادها بما هي في حاجة إليه من المثل والعظات. فلهمَا شكري ودعائي وتحياتي.

أشخاص الرواية

- الفارس أقطاى: نائب الأتابك.
- الأمير جمال الدين محسن الكاظمي: ناظر الخاص.
- الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري: أمير المماليك البحريية.
- الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ: أتابك جند مصر.
- الكاتب سهيل: كاتب شجرة الدر.
- هبة الله^١: طبيب فرنسي الأصل رُبّي في مصر.
- الشيخ برنار^١: صاحب عزبة بناحية فارسكور فرنسي الأصل.
- الملك المعظم طوران شاه: سلطان مصر بعد وفاة أبيه الصالح نجم الدين أيوب.
- صبيح: مولى طوران شاه وحارس سجن الملك لويس.
- الملك لويس: ملك فرنسا وقائد الصليبيين الأعلى.
- الأمير دارتوا: أخو الملك لويس.
- الأمير بواتيه: أخو الملك لويس.
- مسعود^١: عبد بيبرس
- الأميرة شجرة الدر: امرأة السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

^١ جميع أشخاص الرواية تاريخيون إلا المؤشر أمامه بهذه العلامة.

الأميرة صفية^١ : أخت شجرة الدر.

مريم، عائشة^١ : فتاة تعيش في عزبة برنار.

الفصل الأول

المنظر

يزاح الستار عن دار في قصر السلطان الصالح أيوب على النيل في الجانب القبلي من مدينة المنصورة، وهو بناء عربي الطراز والتقسيم: إيوان ورحبة، أما الإيوان فواقع في مؤخر المزاح، والرحبة في مقدمته ويعلو عنها شرّقاً تقربياً، والإيوان نصف مثمن به ثلاثة أضلاع كاملة في مواجهة المشاهد، وهذه ذات شبابيك، أي: نوافذ فيها قضبان متعارضة، عليها من الداخل سجف «ذات فلقتين» من الديباج الثقيل إذ الوقت شتاء «١٠ ديسمبر^١ سنة ١٢٤٩»، أما الضلعان الجانبيان فكل منهما نصف ضلع المثمن أو يزيد قليلاً، وفي كل منها باب قصير «أربع أذرع» مكفت بنقوش عربية من المعدن ... واحد إلى اليمين بالنسبة إلى المترج وهو مؤد إلى غرف السلطان وحرمه، وأخر مثاله إلى اليسار هو مقطع كبار الدولة، أي: الباب الخاص الذي يحضر منه وينصرف كبار أمناء السلطان، وأمراء حرسه الخاص المعروفون ببرجال الحلقة، ومن هم في كرامة المنزلة مثلهم ... ويفصل الإيوان عن الرحبة عمد من الرخام، تعلوها بوائك موشحة بنقوش عربية ما بين البواكيير «الأقواس». والبوائك الثالث: اثنان منها صغيرتان هما الجانبيتان، وواحدة كبيرة «وتعلو نصف ذراع عما بجوارها» بين هاتين.

والمكان جميعه مفروش بأنفس البسط الطبرستانية «الفارسية»؛ إذ الوقت شتاء كما نبهنا، ونرى على أبوابه جميعاً سجفاً غير مسدلة بل مزاحة إلى الجانبين ما عدا

^١ ذكر لين بول أن موت الصالح كان في ٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩ ولكن جوانفيلي الذي كان في هذه الحملة بوظيفة Constalbe de France أمير جيش الملك، قال انه كان في ١٠ ديسمبر من تلك السنة.

باب حرم السلطان، وفي الإيوان مقاعد ووسائل فاخرة وضعت دُوَيْنَ النوافذ يعلو عليها في الصدر مقعد كبير يكون للسلطان عادة عند اجتماعه برجال ديوانه، ولكن الدار قد اتخذت تلك اليلة للنوبة، أي: حراسة السلطان وخدمته المستعجلة؛ لأنَّه مريض يئس الأطباء من شفائه؛ ولأنَّ الفرنجة الفرنسيس – وكانت معهم فرقة إنجليزية – تحت إمرة Longsword وهو لورد Salisbury تحت إمرة الملك لويس التاسع المعروف في كتب التاريخ العربية باسم رَيْ دِيْ فَرَانْس – أوروا دِفَرَانْس تعرِيب Roi de France – قد عاودوا ضرب مصر لامتلاكها توطئة لاسترداد القدس، وإبادة علم الإسلام من الدنيا؛ إذ كان هذا مأمول أوروبا في القرون الوسطى ومناط مجدهم وفخرهم، وقد نزلوا البلاد واحتلوا دمياط «التي أخرجوا منها مذهورين أذلة قبل ذلك بثلاثين عاماً على سيف السلطان الكامل أبي السلطان الحالي، وباني مدينة المنصورة تخليداً ليوم نصره»، ويوشك جيشهم أن يزحف على المنصورة في طريقه إلى بابليون «مَصْرُ الْقَدِيمَةُ»، فالأمر يستوجب قرب أعيان الدولة مناوبة بجوار السلطان في كل وقت.

وإذ كانت العادة أن يتلهي أمراء النوبة في تلك الليلات بلعب الشطرنج وغيره، ويستعينوا على السهر بمذاكرة الشعر، ورواية أحاديث الدول، وتلاوة القرآن الكريم ومطالعة الحديث الشريف^٢ فإن في المكان خزانة على شكل صندوق، إذا أُفْلَى غطاؤه حسبته مقعداً ذا جانبين، وإذا رُفِعَ الغطاء وجدت فيه نسخاً من أعيان الكتب المخطوطة في الشعر والتاريخ والقصص والفقه والتفسير وغير ذلك، وقد أتى بالخزانة في تلك الليلة من «دار الخاص»، ووضعت دُوَيْنَ الباب الأيس الأعلى في الإيوان بميل وانحراف. وفي المكان في مقدمة المرزح دُوَيْنَ الباب الأيمن الأدنى ثلث وسائل صغيرة ثمينة القيمة؛ اثننتان منها إلى الأمام، وواحدة إلى الوراء بينهما على قيد ذراع منهما، وقد وضع بين الوسائل الثلاث دست، أي: صندوق صغير وضعت فوقه رقعة شطرنج، صفت عليها قطع من العاج والأبنوس المكفت بالفضة، وفي الدست درج ظاهر للمتفرج قد أخرج منه لتلقى فيه القطع المدحورة ساعة اللعب أو تحفظ فيه بعده.

أما الوسائل الثلاث فقد جلس على اليمين منها الكاتب سهيل، مولى شجرة الدر امرأة السلطان وكاتم سرها، وهو فتى في الثلاثين من عمره لا لحية ولا شارب له؛ لأنَّه خسي،

^٢ عن المقرizi.

قد لبس كلوته «طاقية مضربة» ظاهرها أطلس رومي أصفر اللون اعتمًّ عليها على غير العادة بشاش من الحرير الإسكندرى الأبيض، وعلى جسمه قياء بغلطاق «بلطو» من الحرير الأحمر الرومي، مسجف بفرو السنجب، ومبطن بفرو ثمين، وقد تمنطق عليه بيند أبيض من الحرير، ويبدو من أسفل البغلطاق المذكور سراويل من الصوف الملطي «الجوخ» وفي رجليه خفان من الجلد الأسود البلغاري يلبسهما بخفين آخرين من الجلد الرقيق «أشبه بالمرأة أو هو بعينه» والخف الظاهر ذو رقبة عالية نوعاً ما وتدخل فيها فتحة السراويل.

وسهيل هذا جالس يلاعب رجلاً أمامه هو الأمير الكبير جمال الدين محسن الكاظمي ناظر الخاص «وهي أرقى مراتب الدولة يومئذ وأسمهاها»، وهو رجل في الأربعين من عمره بادن شيئاً ما قد ارتدى كما ارتدى سهيل مع اختلاف في اللون؛ إذ كانت كل ثيابه بيضاء غير أنه قد توшиح بحميلة تدل منها سيف عربي مرصع القراب بشيء قليل من الجوهر، وقبضته مكفته بالذهب، وجلس على الوسادة الثالثة رجل يدل ارتفاع رأسه عن الآخرين على أنه مدید القامة^٣ وهذا هو الفارس أقطاي، وهو رجل دوين الأربعين يبدو نحيف الجسم لطول قامته، له نظارات حادة مطمئنة تدل على الفروسية والاعتداد بالنفس، وهو أصفر شعر الشارب والرأس، وملابسه ملابس محسن إلا أن كلوته من الصوف الأحمر وعمامته مفرعة إلى العلی، وكانت مرتبته إذ ذاك نائب الأتابك، أي: نائب القائد العام.

وإلى اليسار الأقصى بأدنى المزاح مقعد منخفض عليه وسادة ثمينة ومساند جلس عليه الأمير بيبرس البندقداري قائد المالكية البحرية المرابطين حول القصر، وهو يطالع في كتاب أمامه قد فتح على كرسي مجنح منبسط بديع النقش والتكميل هو القرآن الكريم. والأمير بيبرس هذا رجل فوق الثلاثين من العمر ربعة في الجسم بلا بدانة، أبيض الوجه مربعه، أزرق لون الحدق، له نظرة الأسد في وقار وكرم، وفي إحدى عينيه كسرة في مؤخرها^٣ تزيده في عين الناظر مهابة، وهو مرتد قباء «بغلطاق» من الحرير السميك السنجابي اللون عليه أزرار كبيرة من الذهب في سجهه وهو متنطق بحياصة عريضة من الذهب علق على يسارها سيف عربي، أما كلوته فهي من الحرير الأسود المضرب، وعمامته صغيرة مفرعة، وخفاه الخارجيان مثبت فيها مهماز مكفت بالذهب مثل أقطاي.

^٣ كتب التاريخ.

وإذ يزاح الستار يُرى رجلٌ آتيا من الباب الأيسر الأعلى — مقطع العظاماء — ماشيا الهوينا على إفريز الإيوان وراء الأعمدة، وفي يده رسالة يقرؤها ثم ينزل الرحبة، وإن يرى الخزانة أمامه مقفلة الغطاء يجلس عليها، ويستمر في القراءة، وهذا هو الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أتابك الجنд «القائد العام» ومدير الدولة في مرض السلطان، وملبسه في جملته مثل بيبرس إلا أنه أزرق اللون، وإذا نظر إليه الناظر وجده في الخمسين من عمره، ينم مجموعه على أنه نضو حروب، ظفر منها بمنصب عظيم جديرة به وبسالف محنته؛ إذ إنه سليل أمجاد وفرسان وقادة عظاماء معروفين على مدى سبعة قرون،^٤ ولكنه في صمته وقلة انتشار نفسيه وعدم انقطاع نظره عن الرسالة التي بيده يشعر بأن ضميه مثقل بهم كثير.

والمكان مضاء بثريات عظيمة متعددة القناديل؛ واحدة في الإيوان، وثلاث في معاعد البوائق إلا أنها صغيرة، وأخرى كبيرة في وسط الرحبة يرى تحتها حامل مثمن الأصلاع، مصنوع باللقم والمخاريط الخشبية التي تصنع منها المشربيات عادة، وهو شبيه في جملته بكرسي العشاء في الأفراح عندنا.

التمثيل

سهيـل (ناظراً إلى الرقة يتناول رخ محسن ويلقيه في درج الدست): رخ (يلتفت إلى الفارس أقطاي) كيف حالك يا أقطاي؟

أقطـاي: حال من يرى آماله يقصر ظلـها. إن مرض السلطان يقلق بالي يا سـهـيل. أرأـتـ هـبـةـ اللهـ الطـبـيـبـ؟

سـهـيلـ: أـدـخـلـتـهـ اللـيـلـةـ عـلـىـ السـلـطـانـ فـمـرـخـهـ بـمـرـهـ ثـمـ خـرـجـ وـلـمـ أـرـهـ، وـكـنـتـ أـرـيدـ أـنـ أـتـعـرـفـ مـنـهـ حـقـيـقـةـ الـحـالـ.

أقطـايـ: لـعـمـريـ مـاـ تـنـصـفـونـ إـذـ تـدـخـلـونـ هـذـاـ الطـبـيـبـ عـلـىـ السـلـطـانـ. أـمـ نـسـيـتـ أـنـ أـبـنـ صـلـيـبيـ قـتـلـنـاـهـ؟

^٤ انظر تاريخه في المقرizi.

سهيل: إنه طبيب القصر قبل أن أطرق القصر. ولقد عشت ما عشت فرأيته يدخل ويخرج بالليل والنهار غير مدافع ولا مستراب، ويتنقل مع السلطان وحاشية السلطان في الكرك ودمشق وحمص وحلب وفي كل مكان، فهل كان لي أن أمنعه اليوم من أن يكون كعهده بالأمس؟

محسن (يقدم الفرس): دونك هذا الفرس المطهم. وإذا أنصفت امتطيته وسرت به إلى شواطئ دمياط تجد هبة الله هناك.

سهيل (يضحك): ما شأني به هناك؟

محسن: سله ماذا فعل مرهمه بمولاك؟ وأي خبر من أخبار القصر يحمله إلى أهله الأقدمين؟ وسله كذلك أين تنزل الأميرة صفية؟ (هنا يرفع بيبرس رأسه ويظل ينظر إليه، ويشرع فخر الدين جفنه إليه وهو يطل في الورقة) فإذا وصلت إليها فاقرأ الفاتحة على روحها.

أقطاي: وي! وي! وي! ما هذا؟

محسن: أخبار بسيطة يا نائب الأتابك وفارس الفوارس، كيف حالك اليوم؟

أقطاي: عجبي! عجبي! من أوقع الأميرة صفية في أيدي الفرنسيين؟

محسن: علمها عند هبة الله، إنه يقول: إنها كانت آتية من الشام فاعتقلها الفرنسيين في دمياط.

أقطاي: ومن أين له علم بذلك إلا أن يكون له بمن اعتقلوها اتصال وثيق؟

محسن: سل نسوة القصر عن ذلك. ألا تدرى أنه خطب الأميرة إليهن غير مرة ثم خطبها إلى من هو أكبر منها وأعلى؟

أقطاي: خطب الأميرة صفية لنفسه!

محسن: أجل. أتظن أنه يرى نفسه في القدر دونها؟ إنه يزعم أنه ملك غير متوج.

أقطاي: ومتى كانت هذه الخطبة يا ترى؟

محسن: ونحن في حمص.

أقطاي: إلى أختها؟

محسن: بل إلى السلطان نفسه.

أقطاي: وماذا فعل السلطان؟

محسن: ضحك وضحك وظنها مزحة، ولكنني علمت أنه كان هائماً بها من يوم ما حملها بيبرس من بادية بغداد، كما كان هائماً منذ سبعة عشر عاماً بفتاة كريمة كانت زهرة قصر الملك الكامل ودرته الناصعة، حتى لقد صارحها بحبه ذات يوم فلطمته على صدغه بنعلها لطمة ألتفت له ضرس العقل، وأطارت طائر الرشد من دماغه.

أقطاي (يضحك): ترى من كانت هذه الفتاة العظيمة؟

محسن: ألا تعرفها؟

أقطاي: كلا والله.

محسن: هي التي بنيت بها أنت يا أقطاي.

أقطاي: امراتي؟

محسن: امرأتك بعينها.

أقطاي: وي! وي! قبح الرجل! قبح! حقا إنه غير سليم، ولكن هل شرعتم تحققون نبأ الأميرة صفية؟ لعلها أكذوبة يشيعها الفرنسيس على ألسنة جواسيسهم لينالوا من ورائها مأرباً، ألم تشرع مولاتنا شجرة الدر في ذلك؟

محسن: مثل مولاتنا لا يهدئ هذا النبأ بالها، وقد كتبت إلى مرغريتا امرأة ريدافرانس تسألها وتستوسيطها في إرسال أختها إليها إن كان الأمر صحيحاً، وأهدت إليها شيئاً كثيراً من درها الأسود النادر، فذهبت الرسول ولم يعد وكأنه طمع فيما كان يحمل.

أقطاي (متعجبًا): ومن كان هذا الرسول يا ترى؟

محسن: تاجر من أهل البندقية تعرفه منذ كانت في بيت المستعصم ببغداد، أى: قبل أن تتزوج من مولاتنا السلطان الصالح.

أقطاي: تالله ما وثقت يوماً بتاجر ولا رأيته فيمن يستحق كرامة. ولكن ماذا فعلت شجرة الدر؟

محسن: لعمري لولا أن مرض السلطان يقعدها لذهبت هي نفسها تبحث عن أختها هذى. فما أنسى يوم جيء بها معنا إلى العراق كيف كانت تبكي على أمها وأبيها وتتوسل إلى بائع الرقيق أن يردها إلى خوارزم. والرجل يضحك مرة ويعبس أخرى ويهم بضربها أحياناً، ولا أنسى أيام اصطفاها السلطان زوجة له كيف أخذت تنبش الأرض عن تحطفهم تجار الرقيق من أهلها إثر نكبة التركمان الكبرى، وماذا أنفقت من الأموال حتى جاءها بيبرس بأختها صفية هذى.

أقطاى: لقد كان يوماً مشهوداً.

محسن: بل لعمري إنها بالرغم مما هي فيه من نعمة تغبطها عليها الحور لthren إلى خوارزم، وتئن كلما ذكرت أنها مقطوعة عن الأهل في هذه الدنيا، ولا سيما بعد إذ فجعت في خليل ولدها الذي رزقته من مولانا. كم مرة دخلت عليها الخدر. وهي تبكي لفرق أهلها وذكري أمها فأبكيتني معها.

أقطاي: أحزنني والله يا محسن، أيقظت بي ذكري الأهل والوطن، لعمري إنني لأحس في بعض الأحيان لهبًا يندفع في فؤادي إذا تعرضتُ لذكريات الوطن.

محسن: أشكرا الله على نعمة الإسلام يا أقطاي، إنه جعل من أهله إخوة ومن أوطانه
وطنا لأهله.

أقطاي: صدقـت ولكنـ الإنسان يـحب منـ الـدـنيـا قـطـراـ فـبـلـداـ، وـمـنـ الـبـلـدـ خـطـاـ فـحـارـةـ، وـمـنـ الـحـارـةـ زـقـاقـاـ فـبـيـتاـ، وـمـنـ الـبـيـتـ غـرـفـةـ فـزاـوـيـةـ، وإنـي لـأـتـمـنـي أـنـ أـعـودـ إـلـىـ هـذـهـ الزـاـوـيـةـ منـ بـيـتـ أـبـيـ فـيـ خـواـرـزـمـ، أـتـخـيـ بـهـ بـقـيـةـ أـيـامـيـ.

محسن: إِحْمَدَ اللَّهُ عَلَى حَالِكَ يَا أَقْطَاهِي، كُنْتُ وَكَانَ أَعْيَانُ الْمَالِكِ الْبَحْرِيَّةِ مِنْ أَعْيَانِ خَوَارِزَمْ، فَلَمَا شَتَّتَنَا الْمُغْوَلُونَ لَمْ يَشَأْ رَبُّكَ أَنْ تَنْزَلَ فِي غَيْرِ بَيْتِ الْمَجْدِ وَالْإِمَارَةِ وَالنَّعْمَةِ الْفَيَاضَةِ، فَقَيَضَ لَنَا مَوْلَانَا الْمَلِكِ الْصَّالِحِ فَفَدَانَا وَاشْتَرَانَا كَاهْلَهُ وَأَمْرَنَا كَمَا كَانَ آتَوْنَا.^٦

أقطاي: إنها والله لنعمة كبرى لأبقي بشركتها أن نبذل أرواحنا في مدارج قدميه وقدمي أختنا ومولاتنا شجرة الدر فضلی نساء المسلمين. كان أجدرك يا محسن أن تذكرها، إننا أهلها وموالاتها وإننا نفديها من الشر بأرواحنا.

محسن: إنها والله لتعرف ذلك وتعتز به، وترى أنها بخير ما دمتم. ولقد أقلق بالها اليوم أمر عصبي، فرأيت أن تدعوكم للقاءها.

أقطاى: إنى تلقيت الليلة رسالة منها، ولكن يدهشنى منها أنها بخط السلطان.

٥. كان محسن هذا من الخصيان كسهيل.

٦. كتب التاريخ.

محسن: بخط السلطان! متى كان السلطان كاتب يد لامرأته! بل هل يستطيع السلطان الكتابة وهو على خطه؟
أقطاي: لا أدرى.

(سكت)

سهيل: لعنة الله على هذا الفرس. (يرفع يده متضايقا، فيضحك أقطاي وينظر إلى الموقف).

محسن (يضحك مقهقا): تقبله هبة مني يا سهيل.

سهيل: هبة! والله لو كان لجامه من ذهب وكنبوشة مرصعاً باللناس ما أخذته ...
دونك هذا البيدق.

(يقدم البيدق)

أقطاي (يعرض الرسالة التي جاءته من شجرة الدر على سهيل): أتعرف هذا الخط يا سهيل؟

سهيل (يأخذها منه وينظر فيها ويردها مسرعاً بلا اكتئاث وهو يبتسم ويعود فينظر إلى الرقعة): هذا خط السلطان.

أقطاي (بتعجب): خط السلطان! (يطوي الرسالة ويعيدها إلى حياصته).

محسن: قبّح البيدق وصاحبها (يقدم قطعة من قطعه).

أقطاي: إليك والاستهانة بالصغير ... كم من بيدق فاز على ملك.

سهيل: وهذا برهان المقال. (يقدم بيدق آخر). هذا بيدق آخر. كثُن الشاه.

محسن (يذعر): شاه! كيف ذلك؟ محال!

سهيل: ويحك أما ترى!

أقطاي (يضحك): قضي الأمر يابني. مات الشاه!

سهيل: مات الشاه.

فخر (ينهض عن مقعده): بئس الفال! بئس الفال! أقسمت عليكم أيها الأمراء إلا ما فضضتم هذا اللعب قبل أن يتم، دعوه بالله لنوبة أخرى. أرجع القطعة يا سهيل، إنه لفأل شؤم على السلطان (يلتفت إليه بيبرس ويعود إلى النظر في القرآن).

أقطاي (يضحك متهكمًا ولا يلتفت إليه): أنت من أهل الطيرة والفال يا فخر الدين؟ فخر: كلا والله، ولكن النفس إذا وجدت استسلمت إلى كل شيء حتى الخرافه. ولقد أنقضني مرض مولاي الصالح، وتملكني الحزن على مصر منذ نزلت الفرنجة بأرضنا. لعمري لئن فاجأه القدر ونحن في قتال مع الفرنسيين لانتقام الأجناد بعضهم على بعض وأخذنا بالسيف من كل جانب، أما والله إنه ليختل إلى أنني متقدمه إلى دار الآخرة عما قليل.

أقطاي: تحسن والله صنعاً، إن فعلت يا سيدي الآتابك، هذا وحقك جزاء وقلق سهيل ومحسن وإن كانا منهما في اللعب يضحكان ويشاركانهما أقطاي بعد ذلك. وفخر الدين يؤخذ خجلاً أليس كذلك يا بيبرس؟

بيبرس: ذرني ونفسي يا أقطاي.

سهيل: دعه يكمل سورة الفتح يا أقطاي!

بيبرس: لست أقرأ سورة الفتح يا سهيل، إنما أقرأ سورة المنافقين. لا أدرى من ذا جاء بهذا الأمير (مشيراً إلى فخر الدين) إلى هذا المكان؟ أهو من أمراء النوبة هذه الليلة.

محسن: كلا ولكنه...

بيبرس: فماذا يدعوه إلى مضاعفة همنا بظهوره بيننا في هذه الليلة الليلاء؟ أيريد أن يذكرنا بتخليه للفرنسيين عن دمياط؟

محسن (يتكلم ولا يلتفت): لقد عفا الله عما سلف يا بيبرس ... دع عنك هذا.

بيبرس: لعمري لئن عفا الله عن مثل هذا الجرم لقد هان الكفر على الكافرين.

فخر: إنك لترجع صدري أيها الأمير. أتعي ما تقول؟

(ينهض ويمد يده إلى مقبض سيفه).

بيبرس (ينهض ويضع يده على مقبض سيفه ويجرد بعضه): لقد كان جديراً بك أن ترينا بريق هذا السيف على شواطئ دمياط مقبلاً ولا مدبراً ... حسبك أيها الأمير ... هذا برق خلب لا يخدعني.

فخر: إنه لينطف دماً يا بيبرس لو كنت تدرى.

بببرس: أجل دماء النساء والولدان من أهل دمياط.

أقطاي (ينهض): دعونا من هذا اللجاج أيها الأخوان، حرّيّ بكم ألا تزيدوا السلطان مريضا على مرضه باقتتالكم على ما فات، إنّي لأخشى أن يبلغه الأمر فيقضي نحبه، أغمد السيف يا فخر الدين. وأنت يا بببرس حسبك.

بببرس (يغمد السيف بشدة): لو أنّي قد تولت الدفاع عن دمياط وهي في حصنها التي أقامها الصليبيون منذ ثلاثين عاماً، وتحت إمرتها من الرجال ما كان تحت أمرة هذا الأمير منبني كنانة والمماليك البحريّة، وبين يديها من المؤونة والذخيرة والعدة والسلاح ما كان بين يديه، لاستعانت على الجيش اللجب، ولأنزلت بعدها أنكر العطّب، ولكن كبير جند مصر لم يزد على أن نهض من مجلسه وأطل صوب البحر، فرأى مراكب الفرنسيّين تدنو من دمياط ففر كالأندب الأخرق المذعور، تاركاً أعراض المسلمين من ورائه يتناهباً قسراً جنود الصليبيّين، ورقب الأّمراء منبني كنانة يضرّبها السلطان في وجده، ورأس هذا الأمير بين كتفيه.

فخر: ويحك ... أما والله لولا أن يقال: لم يرع للسلطان حرم لأسلت الآن دمك.

بببرس: أو لسال دمك يا سبة الأّمراء (يجرد سيفه وبهجم عليه، ويقابله فخر الدين بمثله ويقتتلان ويتقىدماً أقطاي نحوهم وينهض سهيل ومحسن ويحاول الجميع الحيلولة بينهما).

محسن: ما هذا!

أقطاي: بببرس!

(وإذا بشجرة الدر قد فتحت الباب الأيمن وظهرت فتقدمت ثم وقفت تنتظر، وشجرة الدر هذه في الخامسة والثلاثين من العمر كبيرة العينين حلوة الوجه صغيرتها، نظرتها نظرة الصقر هادئة، تدل ملامحها على أنها قوية العصب واسعة الحيلة، وهي مرتدية قباء من الحرير السميك قصير الكمين مطرزاً، حول قبته وعلى ظهره وأطراف كميته وسجفه بالزرκش الثمين المرصع بالجواهر على صور طيور وأفنان، وتحته قفطان من الحرير الأبيض المطرز أيضاً قد تمنطق على بحياصه مرصعة بالجواهر، وتدلّت منها ذلائل من أسماط اللؤلؤ تخفى بينها خنجراً صغيراً مرصع المقبض والقارب، وعلى رأسها عامة من الشاش الحريري الإسكندرى «المقدوني» قد نثر عليها اللؤلؤ في أسماط اللؤلؤ ثبّتت على صورة بوائق وموشحات، برزت فيما فوق الجبين منها درة سوداء كبيرة تحيط بها

درر أخرى، وعلى صدرها ولبتها عقود من اللؤلؤ أيضًا، وفي رسغيها وأصابعها سواران وخاتم ثمين، وفي رجليها حذاء على شكل «المركوب» أو هو بعينه مرصع بالجواهر، وقد انتقت ببغطاء شعشاوع؛ إذ إن جميع من في الدار عبيد زوجها ورجال بعضهم طواشى والبعض ممن اتصلوا في الخدمة بها مدة طويلة).

(الأمراء يتبحون فيرجع بيبرس إلى مكانه وأقطاي يقف إلى جوار فخر الدين ومحسن حيث كان يعمل وسهيل يبعد رقعة الشطرنج إلى الوراء).

شجرة: فخر الدين بن شيخ الشيوخ وبيبرس البندقداري! إذن فقد ضاعت الدولة على أيديكم أيها الأمراء (ملفتة إلى الأمراء) أيقاتكم العدو في ظاهر بلادكم، وتقتلون أنتم في باطنها، ثم تتبعون نصر الله! مرحى! مرحى لزعماء الأجناد (تتقدم وتنزل الرحبة).
ماذا جر إلى هذا الشقاق يا محسن؟

محسن: تخل الأمير فخر الدين عن دمياط يا سيدتي.

شجرة (إلى بيبرس): لعل للأمير عذرا في إخلائها، أ فمن حقك أن تجزيه على ذنبه؟
لو كان فخر الدين قد أخطأ فيما فعل لضرب السلطان عنقه أسوة بسواه.

بيبرس: وبي! ... ألم يخطئ؟

شجرة: إن لإخلاء دمياط سرًا لا يعرفه كثيرون، وقد أطلاعني مولاي السلطان عليه منذ عهد قريب فعذرته وال الحرب خدعة.

بيبرس: أفعفا السلطان عنه بعد ذلك؟

شجرة: نعم، عذره عذر فارس لفارس.

بيبرس: فلماذا قتل السلطان أمراء بني كنانة الذين فروا معه، وهم إنما تركوها تأسيا به؟

شجرة: كان ذلك قبل أن يعرف السر وقد حزن لقتله إياهم حزنا شديدا.⁷

أقطاي: إذن فقد أخطأ فخر الدين في التأخر عن الشفاعة لهم عند السلطان يا مولاتي.

⁷ كتب التاريخ.

شجرة: لا أدرى لعله كذلك.

فخر: لم أستطع المثول بين يديه فقد شغلني ملك الفرنسيس وأخواه يومين كاملين عند البحيرة، ولو خللت ساحة القتال في تلك الساعة الرهيبة لقتل من أمرائي فوق هؤلاء عدآ، ولكن جرمي إذ ذاك أعظم وأشد، على أنه لم يدر بخلدي أنه أمر بهم أن يقتلوا.

شجرة: أجل أجل (تتقىء إلى الكرسي الكبير الذي في صدر الإيوان ثم تجلس ويذهب فخر الدين إلى يمين أقطاي) من لنا في الجناد كهذين؟ أليس كذلك يا محسن؟ محسن: بلى يا سيدتي.

أقطاي: لم أجد في الدنيا رجلاً يغضب للحق غضبه بيبرس، لقد كان إفضاء كل منهما إلى صاحبه أدنى إلى الإخوة منه إلى الصداقة حتى رأيته الليلة يقاتله من أجل الحق.

شجرة: نعمت الغضبة الله والحق، أما والله لو لا ذلك ما عفوت عنك يا بيبرس.

فخر: لقد والله كنت أجد لومه إياي عتبًا فاعذرته، فلما لج أخرج نفسي والفطرة
شجرة: وأنت يا فخر الدين، اعذر أخاك.
بيبرس: شكرًا لولاتي.

شجرة: إذن فتصافحا ... تصافحاً أمامي ول يكن ودادً كما بعد اليوم في خدمة الله إخاء (يتصافحان) هذا أليق بحمة مصر (إلى أقطاى) أبلغتك رسالتي يا أقطاى؟
أقطاى: أحل ما سيدتي.

شجرة: وأنت يا فخر الدين؟
فخر: جئت طوع أمرك يا سيدتي.
شجرة: أما أنت يا بيرس فقد علمت من محسن أنك من أمراء النوبة هذه الليلة فلم
أجد حاجة إلى استدعائك، إني أريدك ... أ جاءك نباءً عن أخي؟
بيرس: علمت الليلة أنها جاءت من الشام تتشدك في دمياط، ولم تكن تدرى بما
أصاب المدينة فوقعت في قبضة الفرنخة.

شجرة: فما بال ركن الدين قد توانى عنها؟ ترى نسي عهده أيام كانت معنا في الكرك عند يوسف؟ أم أنها جاءت مصر تبغي غير من أنقذها من أخيash بنى الأصلm في باردية بغداد؟

بببرس: لم أكن وحقك لأدرني بما أصابك أختك إلا الليلة، إنني كنت بشار مساح حتى اليوم، ولكنك الساعية بين سمع الفرنسيس وبصرهم لولا أنها نوبتي في جوار مولاي السلطان، إنك لتعلمين أني لا أطيق أن أتمثل لنفسي أختاً في الدين والوطن أسيرة حتى أنقذها، فما بالك يا عصمة الدين بالفتاة التي علقت بها نفسي وعلقت بي نفسها؟ أما والله لو كان فوق الروح فداء لفديتها، فاعذرني يا سيدتي وتوكلي على الله.

شجرة: شakra لك يا بببرس، من أجل هذا رضيت بك فارساً لها.

فخر (يتقدم من بببرس): ما أشد جرمي عليك يا ركن الدين، لقد كان إخلائي دمياط وقرا عليك يعدل ما أصاب الناس فيها جميعاً، لو بقيت في يدي يومين لبلغتك عروسك سالمة، ولكنه قضاء الله. معذرة إليك يا ركن الدين.

بببرس: لأنك أراد لنا أن نتقاسم البؤس؛ إذ نحن صديقان كما تقاسمنا النعمى في كل مكان. لاتحزن يا فخر الدين ذلك قضاء الله.

فخر: استمعوا لي أيها الرفاق، سأقص عليكم نبأي الذي كتمته عنكم حياء لتعذروا أحاكم حقاً، ولتعلموا أني على ما عهدم في إيثار الموت على العار.

شجرة: أحسنت يا فخر الدين. هذا أتقى لرببة النفوس.

بببرس: إن كان في الذكر أَسَى لك فامسك عليك سرك، حسبنا عذر السلطان.

فخر: كلا، إن كان في الذكر أَسَى لي فهو حسبي. لما جاءت مراكب الفرنسيس إلى بر دمياط جاءتني فتاة تلهث من الركض، وهي تبكي وتنتحب، تقول: أنقذنا، أنجذنا، أنفذ أبي وأمي وأهلي؛ إذ الفرنسيس نزلوا بفارسكور، فزعمت أن الفرنسيس أرادوا هذه المرة أن يأخذونا من كل الجهات، فنزل بعضهم بُحيرة تنيس بشوان قربية القاع؛ ليقطعوا الطريق على جيشي، ويبلغوا المنصورة بلا قتال، وإذا كان في الأمراء من قدّروا هذا الأمر وأشاروا عليّ بإنقاذ السلطان فقد خرجت بجيشي لا ألوبي على شيء حتى بلغت فارسكور، ولكنني لم أجد أثراً لما قالت تلك الفتاة الخائنة، وكذلك نزل الفرنسيس بدمياط بغير قتال.

أقطايني: من تكون هذه الفتاة يا ترى؟

فخر: لا أدرى.

أقطايني: ألم تعلم من أمرها بعد ذلك شيئاً؟

فخر: لم أرها منذ ذلك الحين ولم أعرف من هي.

محسن: لن يخون المؤمن أخاه المؤمن.

أقطاي: ولا المصري أخاه المصري، ولكنني لا أظنهما عملت ذلك بملكها.

محسن: هذا مقدر.

شجرة: خدعة إيهما الأمراء والكريم يُخدع.

بيبرس: لا جناح، لخرجهم منها أذلة كما أخرجنا ملوكهم من قبل.^٨

أقطاي: والآن، ما مهمتنا نحن يا مولاتي؟ إن كان من أجل هذا دعوتنا فقد كان

فيما فات بלא.

شجرة: ليس هذا كل ما دعوتكم له، ولكنني رأيت مولاكم في حالة تدعوه إلى القلق حتى لا يشفق أن يلبي الليلة دعوة ربها، فإذا وفاه القدر وأنتم مشتغلون بمقاتلة عدوكم، وليس في مصر ولـي عهد معهود فإني أخشى أن تنقصم ألفة الأجناد؛ فيتفرقوا ويفشلوا ويحل بمصر والإسلام ما لا دافع له إلا الله، فماذا أنتم فاعلون؟

فخر: إنّ نضرع إلى الله أن يهبه العافية ويمدّ في أجله حتى تنجلـي عنا هذه الغمة، أما والله لا أدرى ماذا نفعل يا سيدتي.

شجرة: وأنت يا أقطاي، هب أن مولاك قضـي في هذه الأيام، أينـت في عضـدكم وتدـهـبـ الدولة بقضـائـهـ؟ الله يـعـلـمـ أـنـيـ أحـادـثـكمـ وـنـارـ الـأـسـىـ تـتـأـجـجـ فيـ صـدـريـ،ـ وـلـكـنـ عـاهـدـ ربـيـ أـنـ أـدـارـيـ جـوـاـيـ فيـ طـيـاتـ الـفـؤـادـ،ـ وـأـجـعـلـ باـقـيـهـ وـقـفـاـ عـلـىـ مـصـلـحـةـ هـذـهـ الـبـلـادـ؛ـ لـذـكـ تـرـوـنـنـيـ أـسـتـعـجـلـ الـحـتـمـ وـأـنـظـرـ إـلـىـ الـأـمـرـ كـاـنـهـ تـمـ،ـ فـمـ رـأـيـكـ؟ـ

أقطاي: لا قدر الله يا مولاتي، ولكن انظري في الأمر ومرـيـ تـطـاعـيـ.

شجرة: آه (متضايقـةـ)،ـ ماـ رـأـيـكـ أـنـتـ ياـ مـحـسـنـ؟ـ

محسن: لا رأـيـ لـنـاـ مـعـكـ ياـ سـيـدـتـيـ،ـ إـنـ مـوـلـاـنـاـ لـمـ يـوـصـيـ بـوـلـاـيـةـ الـعـهـدـ لـأـحـدـ مـنـ أـهـلـهـ،ـ وـلـاـ هوـ يـسـتـطـيـعـ الـآنـ وـصـاـيـةـ،ـ إـذـنـ فـالـشـقـاقـ مـنـظـورـ،ـ ماـ رـأـيـكـ أـنـتـ ياـ بـيـبرـسـ؟ـ

بيبرس: أـكـادـ أـرـىـ سـيـدـتـيـ تـنـهـيـ إـلـيـنـاـ نـبـأـ الـفـاجـعـةـ فيـ مـوـلـاـنـاـ السـلـطـانـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ،ـ فـإـنـ كـانـ كـذـكـ فـإـنـاـ لـلـهـ وـإـنـاـ إـلـيـهـ رـاجـعـونـ.

^٨ يشير إلى إخراج الصليبيين من دمياط قبل هذا بثلاثين عاما.

شجرة: إننا لله وإننا إليه راجعون، قضي الأمر أيها النساء. (تبكي شجرة الدر).
ببيرس: اللهم لا حول ولا قوة إلا بك. (تبكي شجرة الدر ويقف الرجال محزونين).
فخر: ترققي بنفسك يا مولاتي، اذكري قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا
أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

محسن: إنّ لنا في رسول الله أسوة حسنة، لعمري ليس هذا أوّان البكاء والتحمّل
وإنما هو أوّان الرأي والتدبر، أفتريدين أن تشغلي بالك بالحزن حتى تفقد مصر رأسها؟
إننا نعلم أنك كنت صاحبة الأمر أيام كان مولاي في حصار حمص، وكانت ذات الرأي متذكرة
لزلم السلطان فراشه، فإذا استسلمت للأسى استسلمت البلاد للأخطار، ووقعنا أسرى في
أيدي الفرنسيين، وكنت أنت في مقدمتنا، إن كان مولاي الراحل عليك حرمة فارعها اليوم
بإرجاء الحزن عليه، ودبرى له ملكه الذي كان يغار عليه غيرة عظيمة.

أقطاي: صدق محسن يا مولاتي، ورأيي أن تمضي فيما كنت فيه من تدبر شئون
الدولة، وتكوني ملكة مصر والمسلمين طرّاً، ونحن كما نحن مواليك المخلصين.

شجرة: ملكة المسلمين! أفقدت الديار رجلاً؟ كلا، لم أكن لأحدث في الإسلام خرقاً يا
أقطاي.

أقطاي: ولكن ماذا نفعل يا سيدتي، ولم يوص مولانا بولالية العهد لأحد من آل
بيت بنى أيوب؟ إنك والدة ولده خليل رحمة الله، وقد فاضت أيديك كرماً على أهل مصر
والشام حتى أصبحت ولك في كل قلب عرش وفي كل فؤاد مقام، وعلم الناس أن مولانا
كان يعهد إليك في تدبير الدولة في غيابه لفضلك وكياستك، فإذا توليت أمرهم بما عهد
فيك من الحصافة وبُعد النظر كان أجرك عند الله عظيماً، كذلك كان أجر خاتون بنت
الملك العادل، فقد ملكت حلب بعد وفاة ابنها العزيز، وتصرّفت في الأمر تصرف المسلمين،
وقدّمت بالملك أحسن قيام.^٩

شجرة: أجل ولكنني لا أريد أن أغضب الرسول في قبره، أم تريدون أن يحق عليكم
قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يفلح قوم ولّوا عليهم امرأة»؟

^٩ عن أبي الفداء.

ببيرس: بارك الله في سيدة نساء المسلمين، استمعوا لي أيها الأمراء إن إعلان الخبر
اليوم أذى مصر فلا بد من الكتمان.

فخر: أجل. أجل.

محسن: لا شك في ذلك.

ببيرس: وما دامت مولاتنا لا ترىرأي أقطاي فلنبعث بأحدنا الليلة إلى ديار بكر
سرّاً، وليكن أقطاي نفسه إلى الأمير طور الشاه بن السلطان الكريم يخبره بالنبا المشؤم،
ويأتي به إلى مصر لتولي شئون الدولة بعد أبيه.

محسن (بإنكار): أتريد هذا سلطاناً علينا؟

ببيرس: أجل.

محسن: نحن لا نريد سلطاناً كهذا يا ببيرس، إنه ليس كأبيه ولا جده.

ببيرس: كلا ولكن المصريين لا يريدون إلا ملكاً من بيتبني أيوب.

محسن: انظر لنا رجل من كرامهم، فما الملك هنة من الهنات.

ببيرس: نحن اليوم في غمرة، وإنني لأخشى الفتنة في الداخل إن هممنا بمثل هذا.

محسن: ولكنه لا يصلح، أتريد أن يملأها خمراً وحمقاً ونذقاً، إنني ما سمعت أباً
يدركه بخير أبداً، هل بعث به إلى أقصى الأرض من مملكة الشرق وجعله والياً على كيماً إلا
ليريح هذه البلاد من نزقه؟

ببيرس: أعرف ذلك، ولكن الدولة ليست بسلطانها ولا بملكها وحده يا محسن.

محسن: بمن إذن؟

ببيرس: ببرجالها، ببنفس أبنائها، فإن كان السلطان عظيماً وهي دونه لم يفدها
جلالة كثيراً، وإن كانت عظيمة وهو دونها لم يضرها ذلك فتيلاً، ونحن والحمد لله قوم لا
نعرف في الحق زيغاً ولا في الوطن مراء.

شجرة: الحمد لله على ذلك.

الجميع: حُبِّيَّتْ يا ببيرس.

ببيرس: فلنوله علينا طوعاً لإرادة الناس ورعاية لعرف البلاد، إن المصريين لا يريدون
إلا ملكاً من بيت الصالح.

محسن: حتى ولو مال عن الحق؟

بيبرس: إذا مال عن الحق فما هو بأعز جانباً من عمر إلا أن تتلمسوا سيوفكم فلا تجدوها.

محسن: ولكن مولاي لم يوص بولالية العهد إلى طور الشاه، فكيف يرضى به الناس؟ إنا لا نريد أن يتخذها دعاة الملك من بيت العادل والناصر فرصة للتفريق.

بيبرس: بين مصر وكيفاً مسيرة أربعة أشهر ذهاباً وجائمة، ولست أظننا نحصر عن دفع العدو في غضونها.

فخر (يقاطعه): ولكنكم نسيتم أنه قد يتسرّب خبر موت سلطاننا إلى الناس من حيث لا نعلم فيفسد عملنا كله.

بيبرس (بصوت المتصايق): إذن فلتكتب مولاتنا من فورها رسالة بالخط الذي راسلتك به أنت والفارس أقطاي، وهو يكاد يكون خط السلطان بعينه ...

شجرة (تقاطعه): إنه خط كاتبى سهيل.^{١٠}

أقطاي (يلتفت متوجباً لسهيل): خط سهيل!

سهيل: إنه خطى أيها الفارس (يبتسم).

بيبرس: إذن فليكتب سهيل بخطه ويتوجّع السلطان إلى الأمر في قلعة الجبل في القاهرة، وإلى من كان منهم هنا في المنصورة بالطاعة للسلطان الصالح كأنه لا يزال حياً، وبولالية العهد لولده طور الشاه حتى نأمن هذا الجانب من تدبيرنا.

الجميع: حسن حسن.

بيبرس: وبالأتراكية للأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ (يشير إلى فخر الدين).

فخر: لي أنا؟ كلاً أيها الأمراء إن نجمي قد أفل، عليكم بغيري ول يكن ركن الدين نفسه (يشير إلى بيبرس) إنه لأكبرنا همة وأعزنا نفرا.

بيبرس: بل لك أنت يا فخر الدين، إنك لكبيرنا وعمادنا على كل حال، وما الأتراكية إلا حق لك غير موقور.

^{١٠} ذكر المؤرخون أن خط سهيل كان مثيلاً بخط السلطان.

سهيل: يا لجميل الاعتراف!

أقطاي: هذا أرعى لذمة السر يا رجال.

شجرة: صدقت يا أقطاي.

محسن: لا بد من ذلك يا فخر الدين.

فخر: شكرا لكم أيها الإخوان.

بيبرس: وليقم فخر الدين إلى حسام الدين لاجين يجمع في داره الأمراء ويحففهم على ذلك وأنا أول الحالفين.

شجرة: مرحى للبطل.

بيبرس: ولبيق كل أمرئ منا على ما كان عليه، فمحسن ناظراً للخاص، وسهيل لكتابة السر، وأقطاي في إمرة التدريب ونيابة الأتابكية، وعز الدين وقطز وبلبان وتكرز وبيبرس ولاجين فيما هم فيه من الأمرا، ولتبق مولاتنا شجرة الدر تدبر الأمر شورى، حتى يأتي الأمير طور الشاه، عندئذ نعلن ما قد خفي وقد جزنا مرحلة الخطر سالمين.

أقطاي: أصبت.

فخر: أصبت.

شجرة: بارك الله فيك.

بيبرس: فأماما مولانا عليه الرحمة فيوارى لحده في غفلة القصر، وتبقى مولاتنا على كتمان أمره لا تغير عادة من عاداته، بل يخرج الطعام في أوقاته ويصعد الأطباء على عهدهم، ثم يصرفون بعذر يختلق.

شجرة: هذا خير ما يفعل، أليس كذلك يا محسن؟

محسن: نعم الرأي يا مولاتي.

شجرة: وأنتم أيها الأمراء أتقسمون عليه؟

الأمراء: نعم.

شجرة: صدق بيبرس إن الدولة برجالها، هات القرآن يا سهيل، أنت متوضئ؟

سهيل: لم يطلع الفجر بعد يا مولاتي، هاته أنت يا بيبرس لقد كنت تقرأ فيه الساعة.

بيبرس (يتناول كرسي المصحف بين يديه): ها هو ذا يا مولاتي، (ويوضعه فوق الكرسي المضلع الذي تحت الثريا).

شجرة (تتناول المصحف وهو مفتوح فتقبله وترده): تقدموا.
بيبرس (ساعة تقدم الأمراء الحاضرين يstellen سيفه ويضعه بين دفتري المصحف):
إن لهذا السيف حرمة فليكن مع القرآن في قراب.

شجرة: أحسنت, (للأمراء) أقسموا (يضعون أيديهم معها على الكتاب والسيف، وسهيل يضع يده في منديل يتناوله من حياصته وتكون يد شجرة الدر فوق الجميع، وهي تقول والأمراء يرددون كل كلمة تقولها) نقسم بالله العظيم (يرددون) ونبيه الكريم (يرددون) وكتابه هذا (يرددون), وهذا السيف المسلول (يرددون) أن نحفظ السر (يرددون), ونعمل بما أبداه بيبرس (يرددون).

بيبرس (يتم): ونكون عوناً لولاتنا (يرددنا الأمراء وحدهم) ما دامت على الحق والسنة (يرددون).

شجرة (ترفع كفها ويرفع الأمراء أيديهم ويعودون إلى أماكنهم الأولى ويأخذ بيبرس سيفه ويفمدده في قرابه): حياكم الله أيها الأمراء، بمثل هذا تقوم المالك، عودوا الآن على بركة الله، سأدعوكم كلما جد في الأمر شيء، ما كنت فاعلة أمراً حتى تفتون، اذهب الآن يا سهيل أنت وأقطاكي لكتابة الرسائل.

سهيل وأقطاكي: سمعا يا مولاتي (يخرجان من الباب الخاص).

شجرة: وأنت يا بيبرس فأنتي بأختي طاهرة نقية أو فأنتي برأس هاتك حجابها (تراجع قليلاً).

بيبرس: ويل لهاتك حجاب المؤمنات! أما وهذا السيف الذي لا يعرف في الحق لومة ولا للبغاء حرمة لأطهرين البلاد منهم، أو لأغمدنه في صدري، لأتينك بأختك كريمة أو أموت دونها كريماً.

شجرة: إذن فاذهب إليها، إني أسمعها تدعوك (تهم بالخروج من حيث أنت وتلتفت مولية).

بيبرس (يمد يده للسيف فيجرده ويقيمه أمام ناظريه يحادثه وهو يهتز وينتفض):

أيها السيف قد دعوتك فانهض
إن بنت الكرام رهن اللئام
قد أهابت بنا فإن لم نُجرها
ففراقا طول المدى يا حسامي

(ثم يضرب بالسيف في الفضاء إلى أسفل).

الفصل الثاني

المنظر

يزاح الستار عن رحبة براح وراءها جدار عزبة قصير، فيه باب ذو مصراع واحد من الخشب، ووراء الجدار بستان تلوح منه أشجار توت، يظهر من ورائها بنيان بيت صغير، وراءه وحوله في «الفندو» بيوت صغيرة للفلاحين، وإلى جانب الباب دكة من الخشب ذات مسند وقد فرش عليها شريط من الحصير، وضعت عليه وسادة وراءها حشية وإلى المسند حشية مثلاها، ويرى إلى اليمين بالنسبة للمتفرج طريق على رأسها شجرة صفصاف وإلى اليسار طريق على رأسها ساقية:

يخرج برنار صاحب العزبة من باب الجدار على مهل، وهو رجل في السبعين من عمره لم تقوس ظهره السنون إلا قليلاً، ولكنه أبيض شعر الرأس واللحية والشارب. لباسه لباس فلاح فرنسي متصر وعلي رأسه كلوة سوداء رقيقة، وقد ارتدى عباءة أشبه بالجلبة من صوف سميك انتقاء البرد، وتكون في يده عكاذه ساعة دخوله، وإذا فتح الباب تركه مفتوحاً، وأخذ ينظر في المكان. والوقت بعد الفجر بقليل ثم تبزغ الشمس شيئاً فشيئاً فيستضئ المكان.

برنار (يجلس على الوسادة ثم ينادي): ماري (يصفق) ماري، أين ماري يا ترى؟ لعلها تصلي الآن للعذراء. (يصفق) أو لعلها ذهبت تسقي البقر، الرب وأمه يباركان لي فيها.

مريم (تأتي من اليمين من طريق الصفاصفة وعلى رأسها قفة فيها تبن): أنت الذي تنادي يا أبي؟
برنار: أجل يا ابنتي.

مريم: و كنت تدعوني يا أبي؟
برنار: كيف لا يا ابنتي؟ إنك تنهضين قبل أن أنهض، وأنا رجل مسن وأنت طفلة في السادسة عشر من عمرك، وتقومين بخدمة أبيك، وما وكل الله إلينا من الحيوان.
مريم: شكرًا لك يا أبي، إن محبتك لي ورضاك عندي يملأ قلبي غبطة ونعيماً، تالله لا قدرة لي على شكر فضلك.

برنار: بل إن فضلك لا يقدر ولا يحسب، ألسنت التي حقنت دماءبني قومي حيال دمياط ثم وهبتها لهم فنزلوها آمنين؟ تعالى تعالى أقبلك (تنزل عن قامتها قليلاً وتدنو منه فيقبلها) هنيئاً لك ملکوت السماوات يا ماري.

مريم: لا تدعني ماري يا أبي، ادعني مريم، إنني مصرية وأكره أن أدعى بغير ما تدعى به سميياتي من فتيات القرية (تذهب فتضع القفة على ترس الساقية).

برنار: لا بأس، ولكنه اعتياد اللسان يا ابنتي (يصمت)، لماذا تأخر فيليب يا ترى؟
مريم (وهي تبعث بالتبن): أنت على موعد معه يا أبي؟

برنار: كلا، ولكنه يأتيني ليلة الإثنين من كل أسبوع يحدثني بأخبار القصر في المنصورة، ويقص على كل ما يجري هناك، أليس هو الذي أخبرني بمقدم سلطان هذا البلد من حمص في هودجه مريضاً لإعداد دمياط للقاء الفرنسي، فأرسلتك إلى فخر الدين بتلك الحيلة التي انطلت عليه، ثم أليس هو الذي ... الذي ... الذي أخبرني باشتداد المرض عليه فأرسلت إلى الملك لويس بالمسير؟ إنه فرنسي مثل أتحسسين أننا ننسى وطننا يا مريم؟

مريم: زعمت أنك من أهل هندي البلد يا أبي.
برنار: كلا يا ابنتي إنني فرنسي، كنت جندياً في جيش الأمير يوحنا دوبريان الذي نزل بدمياط منذ ثلاثين سنة، وكانت قبلها خادماً في قصر أم ملك فرنسا لويس العظيم نفسه، فلما دارت الدائرة علينا في فارسكور هذه وقعت أسيراً في قبضة الملك عيسى عم هذا السلطان، ثم وقع فيليب وهو فتى صغير السن لم يبلغ العاشرة في يد الملك موسى عمه الآخر.

مريم: أكان فيليب جندياً وهو في العاشرة من العمر؟

برنار: لم يكن جندياً، ولكن أبواه كان طبيباً ولم يكن له من الدنيا إلا فيليب هذا، فلما أتى في ركب الأمير استصحبه معه ومات الرجل في الأسر وظل الغلام في بيت عيسى حتى عاد إلى مصر، وكان قد عرف من الطب شيئاً كثيراً فنشأ طبيباً كأبيه، آه يا مريم، لولا أن هذين الأميرين جاءا من الشام لنصرة أخيهما والد هذا السلطان لنلنا النصر يومئذ ... ولكنه مقدر ...

مريم: وكيف نجوت أنت من الأسر يا أبي؟

برنار: نجاني الله بفضل رجل عربي كان يقطن هذه الجهات دعاني للعيش معه حتى أعود إلى وطني، ولكنني آثرت الديار فطرقته وعشت فيه أعواماً طويلة خادماً لأهله وللرب.

مريم: أما فكرت في العودة إلى بلادك؟ أم استطبت هواء البلاد؟

برنار: ما كنت أدعوه الله في أمر إلا أن أعود إلى بلادي، ولكن أهل الديار حذروني من الظهور للناس، فلما مات السلطان الكامل أبو هذا السلطان تغيرت الأمور، وأرسلت إلى مولاتي أم الملك لويس لتنقذني فجاءتني منها أن ابنها العظيم آت إلى مصر وسيعود بي ... فخرجت إلى الدنيا، وقد تعلمت لغة القوم وواجهت في العيش حتى أصبحت ولி هذه الدار وهذه المزرعة.

مريم: كل ذلك بعد أن جاءك الخبر من أم الملك.

برنار: أجل يا ابنتي، لقد تأخر عشر سنوات كاملة، ولكنه فعل حسناً فإني استطعت بلا سيف ولا قتال أن أفتح دمياط، وأجعل طريق المنصورة مفتوحة لهم، فإذا امتلكوها لم يبق أمامهم إلا قلعة الجبل، ومثلها لا يعز على الملك لويس، وعندئذ أكون قد انتقمت لقومي ولنفسي، ثم أرجع معهم إلى فرنسا وأترك هذه البلاد جميعها.

مريم: وي!

برنار: نعم أتركها لا أخذ منها شيئاً إلا سيفي النائم في قرابه منذ تسع وعشرين سنة حتى أكله الصدأ، وأما داري هذه وهذه الأرض التي أطعمنتي من جوع فإني أتركها لكِ جزاء خدمتك لي، وأمانتك منذ كنا في الديار.

مريم: وتركتني يا أبتي؟

برنار: آه يا ابنتي، هذا ما تألم له نفسي يا مريم، فإنه لا بد من فراقك، ولكن الرب يحرسك وأمه.

مريم: كلا، لا تفارقني يا أبتي، إني لا أشتاهي المقام بهذه الدار من بعدك.

برنار: شكرًا لك يا بنتي، إني سأوصي بك فيليب خيرًا.

مريم: وي فيليب! ولماذا لا تأخذني معك؟

برنار: لا أستطيع ذلك.

مريم: لماذا؟

برنار: هواء فرنسا لا يطيب لك يا ابنتي، بيد أن فرنسا لا تضييف إلا الفرنسيين وأنت غريبة عنهم، فلا يأمنوا لك وربما آذوك أو قتلوك.

مريم: يقتلوني جزاء ما فعلت ... أهُم كذلك؟

برنار: كلا كلا، ولكن وربما ... بل هم ...

مريم: أما والله لقد كان في فؤادي يوم أرسلتني إلى فخر الدين وخز أليم.

برنار (باختداد): وخز أليم! وخز أليم! ادخلني ادخلني، قدّمي العلف للبقر (تنذهب إلى القفة تأخذها وتتدخل) لعنة الله عليك من وقاحك، لن تفارق الدم غريزته ولا القلب طبيعته (هنا يدخل هبة الله في ملابس كاتب من كتاب القصر ... قباء قصير على قفطان من الكمخا، أي: «الشاهي» العريض التخطيط جدًا ومنطقة عريضة إلا أنه لبس فوق ذلك بربنسا عربيًا مشقوقاً من قمته إلى رأس الفؤاد فقط وله أقباع «طرطور» متصل بالبرنس عند العاتق، وعلى رأسه كلوة دقيقة مضربة اعتمًّ عليها بشاش من القطن تحنك به على زي المغاربة، وهو لبس الفاطميين الذين جاءت الدولة القائمة على أثرهم منذ عهد يعد قريباً، ولذلك لم تتغير ملابس العامة في أيام الفاطميين، وظل هذا اللباس لباس العرب في كل مكان، وقد لبس هبة الله لبسهم ليتذكر، وهبة هذا رجل قصير القامة مستطيل الوجه أسمره نوعاً ما، ذو عينين واسعتين وحاجبه مقوس قليلاً يحكم من يراه أنه من يتعمدون في بحث الأمور العادية التي تكشف لأول وهلة، ولذلك لما طبع عليه من الارتياب والتشوش الذهني، على شيء من الغرور، وتنقصي الآمال الكاذبة، فإذا رأاه برنار وقف متھلاً، وهو متکئ على عکازته) مرحباً مرحباً، ادن مني (يسلم عليه ويقبله) برکة الرب عليك، حسبتك تخلف الموعد يا أخي.

هبة: لا يخلف الموعد إلا لئيم ولكنني تأخرت الليلة لأتيك بالنبا العظيم.
برنار: مرحى مرحى. (يهم بالجلوس) اجلس اجلس. هات ما وراءك، أقضى الرجل
نحبه؟

هبة: قضى أو كاد (يجلس).
برنار (يبحث في جيبي ويخرج حقاً): لقد كنت أعددت لك هذا الحق أيضًا.
هبة (يشير له بظهر يده إشارة الرفض): لا حاجة لي به، دخلت عليه ليلة الأمس
فوجدت مرهنك الأول يسري في عروقه حتى ازّق أديمه، وانضرت أصابعه فمرخته به
مرة أخرى وخرجت.

برنار: هذا ما قدرت (يعيد الحق إلى ثيابه)، ولذلك أرسلت إلى الملك لويس أخباره
بذلك، وأشار عليه بالزحف إلى فارسكور، وقد عاد الرسول بخبرني أنه كان يستعد لذلك؛
إذ جاءه جيش مدد من عكا، ولما بلغته رسالته عرضها على باروناته فسرّوا سرورًا
عظيمًا وبحفوا من فورهم.

هبة: مرحى مرحى.
برنار: نشكر رب، إنه سيدهمهم وهم مشغولون بسلطانهم، وليس له في مصر
ولي عهد، ولا بد أن ينقسموا على أنفسهم فيقاتل بعضهم ببعض، ليت شعرى أين يكون
الملك الآن؟

هبة: لقد رأيت مخيما من بعيد فلعلهم بلغوا هذه المحلة.
برنار: لا حاجة إلى ذلك، لقد أرسل يخبرني أنه إذا بلغ فارسكور مركب بي في طريقه
إلى الدير القديم إلى هذه القرية لزيارة أيقوناته، فإذا لقيته نصحته بالمسير إلى بحر
أشمون على الفور، كيف صار لويس يا ترى؟ ... لقد كان صبياً جميلاً الصورة بريء
النظرة يوم غادرت بيته لأحمل الصليب، كنت أقول له وأنا ألاعبه: إنك يا لويس مثل
الملك الأعلى وستكون قديساً، وقد أصبح كذلك، إنه لا ينطق إلا بمثل كلام رب ولا يفعل
إلا الخير.

هبة: إنني أشتاهي رؤيتك فعسى رب أن ينهضه اليوم لزيارة الدير وزيارتكم حتى
أراه، وأنقدم بعبوديتي إليه، ليتنى كنت في خدمة أمه مثلك يا برنار.

برنار: إني سأذكر له فضلك يا فيليب ولن تعدم إليه زلفي، ولعمري لتصبحن في الأمراء يوم يستولي لويس على قلعة الجبل وحصن بابليون، وإذا لقيت باروناته فسأحادثهم في أمرك وأبين لهم أنك بصير بدخول هذه الدولة وأنك تصلح للولاية.

هبة (يتناول يد برنار ويقبلها): شكرًا شكرًا.

برنار: هل يجدون أعرف منك أو أقدر أو أخلص؟!

هبة: شكرًا لك يا برنار على حسن ظنك، ولكنني لا أبتغى من نعيم الدنيا وأعلاقها

شيئًا أفضل عندي من الزواج بصفية أخت شجرة الدر، ترى ماذا فعلوا بها؟

برنار: لقد خرجم من يدهم وأرى خيرًا لك أن تصون على نفسك أشواقها فقد

أصبحت الآن ملگاً للأمير دارتوا.

هبة: للأمير دارتوا؟!

برنار: أجل.

هبة: وي! كيف وصلت إليه؟

برنار: لا أدرى إلا أنه جاءني بها.

هبة (ينهض مضطرباً): جاءك بها؟

برنار (ينظر إليه جامداً): أجل.

هبة (محاولًا مداراة اضطرابه): وهل كان يعرفك؟

برنار: لا بد أنه سمع من أخيه الملك، وقد عاد برفقة رسولي الذي كنت أرسلته إليه.

هبة: وكيف أخذها وكانت في حراسة الملكة مرغريت؟

برنار (على حالة من الجمود): لا أدرى سوى أنه أودعني إياها وعاد، وأوصاني

أن أكتم خبرها عن الناس، ولكنني أعرف أنك لست فيمن يعني، إنما يعني أخيه الملك

وباروناته أرباب المشورة ومن على شاكلتهم.

هبة: ولكن ... سرقها؟ إن هذا الأمير فاسق جريء، إنه اتخذ مقامه في دمياط

فرصة ليقيم فيها سوق الفسوق والبغى، حتى ضج منه جميع الناس.

برنار: الظاهر أنه سرقها، فإن الملك لا يمكن أن يكون قد أسلمها إليه إلا أن يكون

غافلاً عما يفعله أخيه.

هبة: إذن فإن الملك سيغضب لاختفائها لئلا تسوء سمعته في بلاد مصر بأجمعها.

برنار: لا شك، إن لويس قديس كريم.

هبة: فإذا علم أنها كانت هنا صب جام غضبه عليك.

برنار: لماذا؟

هبة: سيرى أنك شريك في الجرم، يجب عليك أن تخبره.

برنار: أُخبره ليقتلني دارتوا! إنني أريد أن أظل على قيد الحياة حتى أرى أحفادي ولكن من ذا يدريه أنها هنا.

هبة (يغضب): أنا سيدى.

برنار (يضحك): أنت؟ لقد هان الأمر!

هبة: أتعجب لذلك؟

برنار: لماذا؟ أتريد أن تتولى أنت إخفاءها؟ (يضحك).

هبة: كلا، ولكنك تعلم أنني عالق القلب بهذى الفتاة منذ عرفتها، ولا أزال أؤمل أن تكون زوجة لي، فإذا وقعت في يد الكونت دارتوا لم أظفر بها، ولكنني أرجو إذا هي بقيت في بيت الملك أن أسأله إياها أجرًا على ما فعلت.

برنار: ولكنك تعرضني لنجمة الكونت دارتوا يا فيليب.

هبة: لا يهمني يا سيدى، كيف يهون على المحب أن يرى من يهوى في يد سواه؟
إما أن تتفق معي عليها، أو أخبرت الملك بأمرها (يجلس).

برنار: أفعل ما تريده يا هبة الله.

هبة (يؤخذ ويصعق): هبة الله! ألم أقل لك لا تدعني بهذا الاسم ما دمت معك.

برنار (بغضب خفي): بلى، ولكنني أردت أن أبين لك أن كشف السر عن اسمك وحده يذعرك (بتهديد) ويحلك! إنني أملك استمامة مولاي الملك عذرا، أما أنت فلا تستطيع مواجهة بيبرس إذا أنا أفشلت له بعض أمرك (ينهض هبة الله) أعلمك أنك لا تزال أحمق يا فيليب؟ (هبة الله يفكر ملياً وتبدو عليه علامات التوفيق إلى فكرة ناجحة فيكتمها، ثم يعود فتظهر عليه علامات اليساس)، اجلس لا تفكري في أن تعلم الملك أو تعلم بيبرس بشأني و شأنها فقد ذهب زمان ذلك، إن الملك على مرمى السهم منا فلم يعد لبيبرس سبيل إلى، أما أنت فإني أستطيع أن أخبره بما فعلت للسلطان وأنا في أمان، والآن إذ قضيت إرببي منك ومن الفتاة التي استودعتني إياها طفلة في الدير منذ خمسة عشر عاماً

...

هبة: مريم؟

برنار: بل عائشة التي سميتها مريم، بنت الفارس أقطاي الجمداري التي حملت سخطك على أمها ومقتك لأبيها وجنونك أن تخطف ابنتهما من مهدهما، وتتأتي بها إلى لحرق قلبها عليها، آه يا لئيم، إن رسالتك لا تزال معنٰي.

هبة: ويحك! أتريد أن يفتضح أمري بعد كل خفائه، وأنت الذي أشرت عليّ به؟

برنار: أخرج، هذه هي تطعم البقر فخذها ولا تقابلني بعد اليوم، إني أصبحت أمقتها هي أيضاً. هلم (هنا تأتي مريم من الدار وعلى رأسها بلاص) هذه هي (تتقدم) مريم مارة أمام الرجلين وتخرج من الطريق التي عليها الصفصافة يميناً وهي مغضبة).

هبة: رباه! كيف تناولت لي على عجل يا برنار؟ أهذه مروءة الإخوان؟

برنار: ويحك! (يقف ينظر إليه) أينا تناول لأخيه، (يلتفت) أما والله ما رأيت في الرجال مثل أخرين، (يلتفت) أقوال متناقضه وأفعال غريبة يعزوها الإنسان إلى سعة حيلة وسداد رأي، أو تعزوها أنت، وما هي إلا خطل وبلة، كلما رأيت في الأمر وجهاً خفياً أو مظلماً سرت إليه تلتمسه فتنقض هذا وتقيم ذاك، ولا تدري عاقبة هذا ولا ذاك، ويحك، أما والله لو لا أنتي تدبّرت الأمر كله لأفسدت عليّ كل عملي.

هبة (ينهض): معدرة يا برنار، معدرة، إن المحب مفقود الحجا، أصفح عنّي، يدك أقبلها (يتناولها بشدة ويقبلها ثم يأخذ ينظر إليه ضارعاً).

برنار (ينظر إليه في أثناء ذلك صامتاً): انهض انهض. إنك لأبله، أتظن أنك تستطيع أن تخفيها عن عيون بيبرس وهو موعد بها، وقد علم بأمرها كما أخبرتني، بل ألم تخبرهم أنت بذلك يا أبله، لماذا فعلت ذلك؟ أليس هذا لأن ميزان عقلك قد خرب منذ زمان بعيد؟ لماذا خبرتهم؟ أية فائدة لك من هذا الإخبار؟ ما خطبك؟ قم قم. لا تحزن إني أعدك بها. سأحدث دارتوا في شأنها، ولكن لا تسأليني عما سأفعل (هنا تبزغ الشمس ويرى سهمها على الصفصافة).

هبة: شكرا لك شكرا (يقبل يده) لا تذكر إلا الخير (يجلس بجواره مطرقاً).

(وإذا بصفية أخت شجرة الدر تخطت عتبة باب العزبة وانحدرت إلى اليمين، فإذا رأها برنار قام إليها مذعوراً وأمسك بثيابها فسلت ثيابها عنه).

(أما ملابسها فقباء على شكل «بالطو» من الحرير الأحمر، وقططان من الحرير المعروف بالقطنية «الكمخا»، وعلى القباء بربنس من الجوخ وعلى رأسها لفة

صغريرة من الحرير الملون، وهي فتاة في العشرين من عمرها بيضاء الوجه
نحيفة الجسم حلوة الطلة متناسبة الأعضاء ذات عينين قويتي النظرة، وخد
ممتلئ على صغر في الوجه).

برنار: الأميرة صافية! أين تذهبين يا ابنتي؟

**هبة: صافية! (يتلثم على الفور بشاش عمامته ويضع يده على صدره ثم ينهض
وينحدر إلى اليسار).**

صفية: أجل إني صافية، دعني. هأنذا ساكنة، أتذعركم فتاة؟

برنار: كلا ولكنك وديعة عندي ولا يليق ... ارجعني يا سيدتي.

**صفية: وديعة! إن كنت وديعة عندك فقد وجبت عليك رعايتي، أم أن الودائع
عندكم لا يرون السماء ولا يستنشقون الهواء؟**

(يعود إلى مقعده ويتكئ بيمناه على المسند والعكازة في يده قائمة على الأرض).

**برنار: ولكنك يا ابنتي أسيرة، وقد جعلت عليك حارسًا حتى أردد إليهم، أآخون
الأمانة؟**

**صفية: تخون الأمانة! أية أمانة فيما تفعلون؟ ويهي أيها الشيخ. متى كانت
النساء تؤسر! ألم يرسلني ملك فرنسا العظيم إلى أختي كبرا عن أسر النساء؟ فلم يشأ
الذي ائتمنه أن يسير بي إليها؟**

**برنار: ولكنني لا أعرف إلا أن الكونت دارتوا أتى بك إلى داري هذه حتى يعود إليك،
وربما كان يريد أن يلتمس الطريق بك إلى أهلك.**

**صفية: ولكنك تعلم أنه جاء بي قسراً، وأنا أخت امرأة سلطانكم، فكيف يقدر لي
أن أجيء إلى هذا النجع المصري، ثم تبالغون أنت في اعتقالي وإخفائي عن عيون أهلي،
بل وعن أعدائهم الأكرمين الذين كنت بين ظهرانيهم؟**

**برنار: ولكن يا سيدتي ... ما حيلتي (بلا اكتراش) لقد أصبحت هذه الدار ملكا
للفرنسيس، فإذا أنا أطلقت سراحك لم يطلقوا سراحني.**

**صفية: وماذا في ذلك؟ هب أنك اعتقلت فداء لصون فتاة، أفتجد هذا كثيراً عليك؟
أم أن اختلاف ديني عن دينكم ينسىكم حق الله والوطن، ويبكيكم أن تسلموا أعراض
ال المسلمين لهاتكها وتررون في هذا زلفى إلى الله وقربانى؟**

برنار (بحيرة وحده): ولكنهم يقتلونني يا سيدتي، من ذا يطيق القتل؟

صفية: آه، لو كنت عربياً لأطقته، ولكن ...

برنار: ويحك، ارجعني إلى حجرتك (يشير بعказاه يريد ضربها فلا تتحرك).

هبة (وهو ملثم لا يبدو منه إلا عين ومارن أنف): روحـي عنك يا سيدتي. الشيخ معذور فيما يقول، إن الفرنسيـس خيموا الليلة بفارسـكور، وقد أـنزلوك في دارـه هذه من قبل حتى يـردوـك إلى أـهـلـكـ بعدـ أنـ أـسـرـواـ منـ جـئـتـ معـهـمـ منـ الرـجـالـ،ـ كماـ تـقـضـيـ شـرـيعـةـ الـحـرـوبـ،ـ فـإـذـاـ هوـ لـمـ يـرـدـ إـلـيـهـ أـمـانـتـهـمـ فـيـمـاـ يـدـعـونـ لـمـ يـكـفـهـمـ فـيـكـ نـسـاءـ هـذـهـ الـقـرـيـةـ جـمـيعـهـنـ (يشير يـسـارـاـ).

صفية (تـتـنـظـرـ إـلـيـهـ باـحـتـقـارـ): آه يا سـيـديـ ماـ عـهـدـتـ المـلـثـمـ إـلـاـ عـرـبـيـاـ كـرـيـمـاـ،ـ وـلـكـنـيـ أـرـىـ قـوـلـكـ أـدـنـىـ إـلـىـ قـوـلـهـ،ـ أـفـأـنـتـ مـنـ هـذـاـ النـجـعـ وـأـهـلـهـ؟

هبة (يـغـصـ بـرـيقـهـ):ـ هوـ كـذـلـكـ يـاـ سـيـديـ.

صفية: إنـ كـنـتـ تـخـشـونـ عـلـىـ فـتـيـاتـكـ فـلـاـ ضـيـرـ عـلـيـكـمـ وـلـاـ جـنـاحـ إـلـاـ أـنـ تـرـواـ سـبـيلـ إـنـقـاذـهـنـ ثـمـ لـاتـبـغـونـهـ.

هبة:ـ وـلـكـنـ كـيـفـ السـبـيلـ؟

صفية:ـ اـهـجـرـواـ هـذـاـ النـجـعـ بـهـنـ جـمـيعـاـ،ـ اـرـحـلـوـ بـهـنـ إـلـىـ أـخـتـيـ فـيـ الـمـنـصـورـةـ،ـ تـنـزـلـكـمـ مـنـهـاـ مـكـانـاـ عـلـيـاـ وـتـبـدـلـكـمـ مـنـ هـذـاـ النـجـعـ قـصـرـاـ مـنـيـفـاـ،ـ وـتـكـوـنـوـاـ مـنـ بـعـدـهـاـ قـوـمـاـ صـالـحـينـ.

برنار:ـ اـدـخـلـيـ اـدـخـلـيـ.ـ لـاـ تـجـرـيـ عـلـيـاـ بـرـأـيـكـ الـأـذـىـ،ـ ذـلـكـ زـمـانـ تـقـضـيـ ...ـ إـنـ الـفـرـنـسـيـسـ آـخـذـوـنـ الـمـنـصـورـةـ وـمـنـ فـيـهـاـ،ـ وـآـخـذـوـنـ أـخـتـكـ أـيـضـاـ،ـ فـاحـمـدـيـ اللـهـ أـنـكـ الـآنـ فـيـ حـمـاـيـ.

صفية:ـ وـيـحـكـمـ وـيـحـكـمـ.ـ مـاـ رـأـيـتـ مـثـلـكـ قـوـمـاـ يـتـفـاءـلـوـنـ الـشـرـ لـبـلـادـهـمـ.

برنار:ـ هـوـ،ـ اـدـخـلـيـ يـاـ اـبـنـتـيـ!

صفية:ـ خـسـتـ إـنـ كـانـ لـيـ مـثـلـكـ أـبـاـ.

برنار (مـهـتـاجـاـ):ـ وـيـحـكـ يـاـ خـاسـرـةـ (يشـيرـ بـعـجـازـتـهـ يـرـيدـ ضـرـبـهـاـ فـلـاـ تـتـحـرـكـ،ـ وـهـنـاـ يـسـمـعـ صـرـاخـ مـرـيمـ خـارـجـ الـمـكـانـ)ـ مـاـ هـذـاـ الصـرـاخـ؟ـ (تـأـتـيـ مـرـيمـ جـارـيـةـ مـنـ جـهـةـ الـيـسـارـ مـفـكـكـةـ الـشـعـرـ مـنـ أـثـرـ الـعـرـاـكـ،ـ وـتـقـيـ نـفـسـهـاـ أـمـامـ بـرـنـارـ جـاثـيـةـ وـتـبـكـيـ بـشـدـةـ).

مرـيمـ:ـ أـنـقـذـنـيـ يـاـ أـبـيـ.

(يـنـهـضـ نـصـفـ نـهـوـضـ وـالـعـكـارـةـ فـيـ يـدـهـ).

برنار: مازا أصابك؟

هبة: مازا جرى؟

مريم: خبئوني، ردوهم عنى.

برنار: مازا جرى؟

مريم: خرجت أملأ الجرة من الترعة فلقيني الذي جاءنا بالأمس (أثناء اللعب تخرج صفية فارة بنفسها خلسة من اليمين) فدهمني على حين بغة.

برنار: محال يا ابنتي.

مريم: وي! لقد أراد أن يؤذيني يا أبتي. (يدخل الكونت دارتوا فتنهض مريم مذعورة) هذا هو (تمسك برقبة الشيخ فيحاول إبعادها عنه لينهض للاقاء الكونت).

(ودارتوا لابس خوذة وقميصاً مدرعاً، تمنطق عليه بحزام علق فيه سيفاً، ولبس فوق هذا حرملة من الصوف الثقيل وفي رجله نعل رومانية، إذا دخل وقف بعد الساقية بقليل).

دارتوا: أين الفتاة التي كانت على الماء؟

برنار: مرحباً بالكونت دارتوا (واقفاً ومريم بجواره).

دارتوا (بلا اكتراش): أين هي؟

برنار: هذه هي (يقدمها بلطفٍ إليه وهي تمانع).

مريم (تنظر إليه فزعة منه دهشة): ويلاه!

دارتوا: أجل هي بعينها، لماذا فررت مني يا صبية؟ (يدنو منها) لماذا؟

هبة: لم تكن تعرفك يا سيدى.

مريم: كيف لا؟ أليس هذا الذي جاءنا بالأمس؟

برنار: إذن فلماذا ذعرت؟

هبة: هذا غريب.

مريم (لهبة الله): أينبغى الأمير عليّ ولا أذعر؟

برنار: قبحت يا شقية، إليك عنى (يطردها بعكازته) معدنة أيها الأمير.

مريم (تصرخ): ارحمني يا فيليب ارحمني (تبكي).

دارتوا: ما للفتاة مذعورة مني؟

هبة: ليست مذعورة يا مولاي، ولكنها لا تزال طفلة (يضحك ضحكة التلطف).

مريم: ويحكم كيف تتكلمون؟ (تركته وتقدم جاثية إلى دارتوا) ارحمني أنت أيتها الأميرة، إنهم يسلمونني إليك خشية متك والتماسا لفضلك، فاحفظ عليّ نفسي يحفظ الله عليك نفسك.

دارتوا (يلتفت عنها): انهضي انهضي، مثل هذا الذعر يقبض عنك النفس (إلى برنار) أين الوديعة؟ (تهم مريم بدخول الدار هاربة وإن ترى دارتوا يسير كأنه يريد الدخول تنصرف عنه جارية، وتخرج من جهة الساقية، وبرنار يلتفت وينظر في باب الدار كأنه يبحث عن صافية مذعوراً فلما لم ير شيئاً يعود، ويلتفت الكونت إلى برنار ثم إلى هبة الله، ثم يلتفت برنار إلى هبة الله ودارتوا ينظر إليهما).

برنار: أين هي؟ هربت! ويلاه، فيليب! لقد كانت أمامك، كيف تركتها؟

هبة: ما هذا؟ أتريد أن توقع بي؟ (يروح ويجيء) إنني لم أرها.

برنار: انتظر لعلها (هبة الله يلتفت هنا وهناك ويده بيسرة ثم يعود كأنه يبحث عن صافية).

دارتوا: أين تذهب؟ قف، ماذا تدبران؟ أين الفتاة؟

برنار: كانت هنا، فلما شغلنا بأمر ماري وصراخها اختفت عن أعيننا.

دارتوا: كذبت يا لعين، إنك أرسلتها إلى أختها، ألم يجئ هذا العربي من أجلها؟

هبة: كلا وحق القديس أيها الأمير، ما أنا بعربي، إني أنا ...

برنار: هذا فيليب هبة الله الطيب الذي ...

دارتوا (يقطّعه): ويحك، أظنتني آمنة؟ إذا كان قد خان سلطانه وصاحب نعمته

فأجدر به أن يخونني (إلى هبة الله بشدة) أين الفتاة؟

هبة: وحق السموات لا أدرى. ولكنها كانت هنا (يلتفت إلى برنار ويحاول التكلم فيقه ما يفعل الأمير).

دارتوا (يقبض على لحية برنار): إنك تخفيها في دارك لأخي بواتيه، إني رأيته آتيا إلى هذا المكان ساعة شروق الشمس (هنا يدخل الكونت بواتيه ومعه صافية، وهو قابض على ضفائر شعرها، ولبس ملبس أخيه سواء بسواء مع اختلاف في لون الحرملة).

صفية: يا أرحم الراحمين ارحمني.

برنار (فرحاً ويتقدّم نحوها): هذى هي، شكرًا لأم الرب (يتقدّم بواتيه من أخيه ويقبض برنار على ذراعها قائلاً) هذى هي هذى هي.

دارتوا (يُخاطب أخاه): أين كانت الفتاة يا روبير؟

بوتاتيه: قابلتها في الطريق عند منعطف الترعة فحسبتها الفتاة التي فرت منه فإذا هي وديعتنا.

دارتوا: وديعتنا؟ إنها وديعتي وحدي يا روبير.

بوتاتيه: أجل ولكن كان ذلك باتفاق بيننا.

دارتوا: ليس على مثل هذا اتفاق، إن الملك أسلمني إليها وعهد إليّ بردّها إلى أهلها في حراسة بعض رجاله فهي ملكي حتى أنفذ أمره.

بوتاتيه: ولكنها فرت منه بعد ذلك فأصبحت حرة ثم أسرتها أنا الآن فهي ملكي وحدي.

دارتوا: هذا تحريف يا كونت.

بوتاتيه (بغضب): تحريف!

دارتوا (بغضب): وحمق وجنون.

بوتاتيه: إنك تهينني يا كونت (يضع يديه على مقبض سيفه).

دارتوا (يضع يديه على مقبض سيفه ويجرده قليلاً): حسبك.

برنار (يتقدّم بينهما راجياً): لا تقتلا لاتقتلا، لا يليق بالأخوين أن يقتلا، إن أخاكما الملك قادم إلينا هذا الصباح، ولعله الآن في الطريق.

بوتاتيه (يلتفت وجلاً إلى برنار): كيف؟ الملك آتٍ؟ من أين لك هذا؟

برنار: إنه وعد أن يزور خادم أمه القديم، وهو مار إلى الدير القريب (تأتي مريم من جهة الساقية وعلى رأسها جرة «بلاص» وتصل إلى الباب، فيلتفت برنار إليها ويُخاطبها) قفي يا مريم، ضعي عنك هذه الجرة (تضعها داخل الباب عن اليمين) انظرا للأميرين) أليست حسناً ناضرة، لا يليق بالأخوين أن يقتلا، هلم ادخل الدار بهما.

الأميران: لا بأس لا بأس.

مريم وصفية: ويلاه — ويلاه!

صفية (ضارعة متوجهة إلى السماء): رب إني أسلمت إليك أمري فنجني من القوم
الظالمين.

بواتيه (يتقدم من صفية): مازا تفعل الحسناء؟ تصلي؟ ما أجمل صلاتك؟
دارتوا (يتقدم من صفية أيضاً ويقف وهو واضح يديه على خاصلته): إنا لا نريد
بك سوءاً يا مليحة، ادخلـي الدار إن برد الصباح قاس عليك.

صفية: اتق الله أـيها الأمـير وردـني إلى أـسرـي عندـ أـخـيكـ، رـدـني إلى قـومـكـ بلـ إلى
خـادـمـيـكـ، إـنـهـ أـرـعـيـ منـكـ لـلـحـرـمـاتـ وأـعـرـفـ بـحـقـ المـرـوـءـ.
برـنـارـ: ويـحـكـ يـاـ شـقـيـةـ، أـقـولـيـنـ هـذـاـ لـلـأـمـيـرـ؟

صفية: وـسـأـذـكـرـهـ لـلـمـلـكـ أـيـضاـ لـيـرـىـ كـيـفـ يـخـوـنـ الـأـمـانـةـ أـهـلـهـ.
بوـاتـيهـ (يلـتـفـتـ إـلـىـ أـخـيـهـ): إـنـيـ نـزـلـتـ لـكـ عـنـهـ يـاـ دـارـتـواـ (يـنـهـبـ إـلـىـ مـرـيمـ).
دارـتـواـ: شـكـرـاـ.

مرـيمـ: ويـلاـهـ ويـلاـهـ! أـبـيـ أـبـيـ!
صفـيـةـ: وـابـيـرـسـ! وـابـيـرـسـ (تـبـكـيـ).
برـنـارـ(يـضـحـكـ): بـيـرـسـ؟ سـيـأـتـيـكـ بـيـرـسـ عـلـىـ بـرـاقـ مـنـ السـمـاءـ. (وـالـكـلـ يـضـحـكـونـ).
دارـتـواـ: هـلـمـ، (يـمـيـلـ جـهـةـ بـابـ العـزـبـةـ يـحـاـوـلـ جـرـهـاـ مـنـ ذـرـاعـهـاـ).
صفـيـةـ: وـارـكـنـ الدـيـنـ! وـارـكـنـ الدـيـنـ!

بـيـرـسـ (مـنـ الـخـارـجـ وـعـلـىـ بـعـدـ): لـبـيـكـ لـبـيـكـ! هـأـنـذـاـ يـاـ مـسـتـغـيـثـاـ بـرـكـنـ الدـيـنـ!
هـبـةـ: بـيـرـسـ يـاـ بـرـنـارـ! (ويـجـرـيـ خـارـجـاـ مـنـ جـهـةـ السـاقـيـةـ).
برـنـارـ: بـيـرـسـ؟

صفـيـةـ: بـيـرـسـ! إـلـيـ إـلـيـ (تـقـعـ مـغـشـيـاـ عـلـيـهـاـ).
الأـمـيـرـانـ (مـذـعـورـيـنـ): بـيـرـسـ؟ (هـنـاـ تـسـمـعـ دـقـدـقـةـ سـنـابـكـ خـيـلـ رـاـكـضـةـ).
دارـتـواـ: مـاـذـاـ نـفـعـ؟

برـنـارـ: اـدـخـلـاـ الدـارـ بـهـمـاـ وـالـزـامـاـ الـبـابـ مـنـ وـرـاءـ، إـنـهـ قـدـيمـ المـلـاجـ.
(يـحـمـلـنـهـاـ وـيـدـخـلـانـ وـيـدـخـلـ بـرـنـارـ وـرـاءـهـمـاـ وـيـغـلـقـوـنـ الـبـابـ).

(يـدـخـلـ بـيـرـسـ كـمـاـ رـأـيـنـاهـ أـوـلـ فـصـلـ إـلـاـ أـنـهـ قـدـ اـمـتـطـىـ جـوـاـدـاـ مـسـرـجـاـ إـسـرـاجـاـ
عـرـبـيـاـ فـاخـرـاـ بـكـنـبـوشـ مـنـ الـأـطـلـسـ الـمـزـرـكـشـ، وـلـجـامـ مـنـ الـذـهـبـ، وـوـرـاءـهـ عـبـدـ

أسود يلبس قميصاً من الصوف، وفي يده سيف، وعلى رأسه عمامه، وبيبرس في عدة القتال؛ فعلى صدره درع، وعلى رأسه خوذة، وعلى فخذيه لامة مزردة. يكون دخوله من جهة الصفصافة والسيف مسلول في يده).

(إذا رأته مريم هرعت إليه ضارعة وتعلقت بأهداب الكنبوش).

مريم: نجّني نجّني.

بيبرس: لا روع عليك، أنت بين ذراعي الأسد، روحـي عنك روحـي. ما خطبك؟

مريم: أرادوا أن يسلموـني الآن إلى الكونـت أخيـ الملك أناـ وفتـاةـ أخرىـ جاءـواـ بهاـ إلينـاـ أـسـيـرـةـ، فـلـمـاـ سـمـعـواـ صـوـتـكـ عـرـفـوكـ فـأـدـخـلـوـهـاـ وـنـسـوـنـيـ هـنـاـ وـالـلـهـ لـاـ يـنـسـيـ الـبـائـسـينـ.

بيبرس: ومن أنت؟

مريم: مريم ربـبةـ برنـارـ صـاحـبـ هـذـاـ النـجـعـ.

بيبرس: ياـ الضـيـعـةـ المـرـوـعـةـ! وـمـنـ هـذـهـ الفتـاةـ الأـسـيـرـةـ ياـ تـرـىـ؟

مريم: لاـ أـدـرـيـ، وـلـكـنـهاـ فـتـاةـ تـدـعـىـ صـفـيـةـ يـقـالـ: إـنـهـ أـمـيـرـةـ، وـهـيـ التـيـ كـانـتـ تستـغـيثـ بـكـ.

بيبرس: ياـ رـحـمـةـ اللهـ! صـفـيـةـ؟

مريم: أـجـلـ.

بيبرس: اللـهـ شـكـرـاـ.

صفـيـةـ (منـ الدـاخـلـ): بيـبرـسـ! بيـبرـسـ!

بيـبرـسـ (يـنـزـلـ عنـ جـوـادـهـ): لـبـيـكـ يـاـ صـفـيـةـ! لـبـيـكـ! هـاـنـدـاـ (يـخـاطـبـ العـبـدـ) خـذـ الـجـوـادـ إـلـىـ التـرـعـةـ وـاـنـتـظـرـنـيـ هـنـاكـ وـكـنـ مـرـهـفـ الـأـذـنـ، أـتـعـرـفـ صـوـتـ بـوـقـيـ؟

الـعـبـدـ: كـيـفـ لـاـ يـاـ مـوـلـايـ (يـخـرـجـ بـالـجـوـادـ مـنـ جـهـةـ السـاقـيـةـ).

بيـبرـسـ (يـتـقـدـمـ إـلـىـ الـبـابـ وـيـدـقـ عـلـيـهـ بـقـبـضـةـ سـيـفـهـ): اـفـتـحـواـ.

برـنـارـ: لـنـ نـفـتـحـ لـكـ.

صـفـيـةـ (بـصـوـتـ ضـعـيفـ): بيـبرـسـ أـنـقـذـنـيـ.

بيـبرـسـ: لـبـيـكـ يـاـ حـيـاـ النـفـسـ (وـيـدـفـعـ الـبـابـ فـيـنـفـتـحـ وـيـجـرـيـ منـ كـانـ وـرـاءـهـ مـنـ الـرـجـالـ، وـيـخـطـوـ خـطـوـةـ إـلـىـ الدـاخـلـ فـيـجـدـ صـفـيـةـ أـمـامـهـ، فـتـلـقـيـ بـنـفـسـهـاـ فـيـ أـحـضـانـهـ فـيـرـجـعـ بـهـاـ إـلـىـ الـمـرـزـحـ).

صفية: ركن الدين! ركن الدين!

بيبرس: هأنذا بين يديك سري عنك.

صفية (بفزع): سر بي من هذا المكان بحقي عليك.

بيبرس: أنت معندي فلا توجلي.

صفية: سر بي بحقي عليك.

بيبرس: لا تحزني، لقد ظفر بيبرس بك، ولم يظفر هذا السيف بمناه، وقد آليت لأهتكن حجاب القلب من هتك لك حجابا (يهم بالدخول).

صفية (تعلق به): لا تدخل لا تدخل.

مريم: لا تتركنا وحدنا.

صفية: سر بحق الله يا بيبرس، إن رؤية هذا النجع تذعر نفسي.

بيبرس: وقسمي يا صافية، قسمي إني ما حنثت في حياتي مرة؟

صفية (تجره): ولن تحنث يا ركن الدين، إنك ملاقينهم عما قريب فبر بقسمك يومئذ.

مريم: أجل أجل. النجاة بالعرض أولى.

بيبرس: سري عنك، هيا بنا.

(يتحول بيبرس بهما صوب الساقية وتسير صافية إلى يمينه ومريم إلى يساره إلا أنها تكون ملقطة إلى الوراء، وإذا بالأميرين قد خرجا من الدار والسيف مشهور في أيديهما وإن تلمحهما مريم تصرخ).

مريم: سيفك أيها الأمير!

بيبرس (يلتفت ويجرد سيفه على عجل وتقف الفتاتان وراءه وينازلهما): يا سبة الرجال كذلك دأبكما؟

برنار (يخرج من الدار ويراقب القتال هنيهة، ثم ينبهه صوت أقدام آتية من جهة الصفافة): الملك أيها الأمراء!

(يلتفت الأميران ثم يتراجعان ويقفان إلى جوار جدار العزبة، ويدخل الملك لويس التاسع ومعه جنديان في لباس الصليبيين، المفتر «طاقة من الزرد» والقميص المزركن والمسيف مدللي من حزام في الوسط، والسروال المزركن أيضاً والواصل إلى القدمين.

أما الملك فقد كان لباسه على صورة خاصة به؛ فعلى رأسه خوذة من صفر مذهب، وعلى بدنـه قميص من حديد مشبك، وسروال مثل جنوده إلا أنه قد لبس فوق القميص درّاعة قصيرة لا أكمام لها زرقاء اللون سميكة، وتنطبق عليها بحزام من مربعات سميكة من الصفر المذهب علقت فيها جعبة سيف مستقيم طوـيل، وقد وضع إـذ ذاك على صدره حـرملة من الجوـخ الأزرق مسـجـفة ومبـطـنة بـفـراءـ).

الملك: ما هذا؟ بـواتـيـه وـدارـتـوا يـقاتـلـان رـجـلاـ!

برـنـارـ: إنـما يـقاتـلـان أـمـةـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ،ـ هـذـاـ بـبـيرـسـ الـبـنـدـقـدـارـيـ.

الـمـلـكـ: بـبـيرـسـ الـبـنـدـقـدـارـيـ! سـلـامـ أـيـهـاـ الـأـمـيـرـ الـعـظـيمـ.

بـبـيرـسـ: أـسـلـامـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ السـاعـةـ؟

الـمـلـكـ: أـجـلـ،ـ أـزـعـمـ أـنـاـ لـاـ نـعـرـفـ حـقـ الـبـطـوـلـةـ؟

بـبـيرـسـ: إـذـنـ فـعـلـيـكـ السـلـامـ أـيـهـاـ الـمـلـكـ.

الـمـلـكـ: مـاـذـاـ جـاءـ بـكـ إـلـيـنـاـ وـحـدـكـ؟ـ إـنـ مـخـيـمـنـاـ عـلـىـ مـرـمـىـ السـهـمـ مـنـكـ.

بـبـيرـسـ: مـنـ كـانـ مـعـهـ مـثـلـ سـيـفـيـ وـقـلـبـيـ لـاـ يـسـتـكـثـرـ الرـجـالـ وـلـاـ يـأـبـهـ لـلـأـهـوـالـ،ـ وـلـكـنـيـ كـنـتـ فـيـ طـرـيقـيـ إـلـيـكـ.

الـمـلـكـ: إـلـيـّـ أـنـاـ؟

بـبـيرـسـ: إـلـيـكـ أـنـتـ.

الـمـلـكـ: وـلـكـنـيـ أـرـاـكـ التـجـاـتـ إـلـىـ هـذـهـ الدـارـ دـوـنـيـ.

بـبـيرـسـ: إـلـهـ إـلـهـ أـيـهـاـ! أـيـقـالـ هـذـاـ بـبـيرـسـ؟

الـمـلـكـ: وـهـلـ يـحـمـلـ بـبـيرـسـ أـنـ يـطـرـقـ الـدـيـارـ وـهـيـ حـرـمـ إـلـاـ بـإـذـنـ أـهـلـهـ؟ـ إـنـيـ أـرـاـهـ يـأـبـونـهـاـ عـلـيـكـ.

بـبـيرـسـ: مـاـ جـئـتـ أـنـتـهـكـ حـرـمـةـ،ـ وـمـاـ يـنـبـغـيـ لـمـثـيـ،ـ وـلـكـنـيـ تـبـيـنـتـ فـيـ هـذـهـ الدـارـ مـاـخـورـاـ فـوـقـفـتـ أـطـهـرـهـاـ بـحـدـ هـذـاـ الحـسـامـ.

الـمـلـكـ: هـذـيـ دـارـ شـيـخـ طـاـهـرـ تـقـيـ يـاـ بـبـيرـسـ،ـ أـعـرـفـهـ مـنـذـ عـهـدـ طـفـولـتـيـ.

بـبـيرـسـ: إـذـنـ فـسـلـ هـذـهـ الـفـتـاهـ،ـ مـرـيمـ،ـ عـمـ أـصـابـهـاـ الـيـوـمـ،ـ لـقـدـ أـرـادـ أـحـدـ أـخـوـيـكـ أـنـ يـبـغـيـ عـلـيـهـاـ فـيـ بـيـتـ مـوـلـاـهـاـ الـطـاـهـرـ التـقـيـ بـعـلـمـهـ وـاـخـتـيـارـهـ.

الملك (ينظر إلى مريم فتطرق خجلا): وي!

ببيرس: وسلها عن هذه الأميرة، عن أخت امرأة سلطاننا المعظم.

الملك: الأميرة صافية؟

ببيرس: أجل، الأميرة صافية، أما والله إن يدي لتنتفض وإن سيفي ليهتز الآن في قرابة.

الملك (حائراً متقدراً): ماذا أسمع؟ دارتوا، بواتيه. أهذه مروعتك يا بواتيه؟ وأنت يا دارتوا، أهذا دأبك؟ أما كفاك أن تضرب فسطاط لهوك إلى جانب فسطاط الملكة في دمياط حتى تعمل على فضيحة أسرتك في هذه الديار، وخيانة أمانتي فيما ائتمنتك عليه؟ أيها الأمير الكبير ببيرس، أشهد أني بريء منهما.

ببيرس: ولكنك أسرتها في دمياط، أكان يجمل بكم هذا؟ أم جئتم هذى الديار باسم الرذيلة لا باسم الله؟

الملك: كلا وحق القديسين جميعا، وإنما خُبرتُ أن جندياً من جنودي طاش به رشده فأسرها، وعلمت من هي فخفتُ أن يصيبها أذى فأخذتها إلى فسطاطي على الفور وأنزلتها في ضيافة الملكة نفسها حتى أردها إلى أختها، ولقد عهدت بالأمر إلى أقرب الناس مني منذ ليلتين، ولكن الشيطان أغواه كما رأيت.

صافية: صدق الملك يا ركن الدين، إنه أمير نبيل ليس في قومه من يعدله في نبله أو يداينيه في تقواه.

ببيرس: شكرًا لك أيها الملك شكرًا، من أجل هذا كنت أشعر أنني ملاق فرنسيًا همامًا.

الملك: شكرًا لك يا ببيرس، ولكن من ذا خبرك أنها هنا؟

ببيرس: كنت في سبيلي إليك في دمياط من أجلها ثقة مني بمرועتك، وأنك لا تؤثر الظرف بعذوك على الظفر بنفسك وبثواب الله؛ لكثره ما بلغنا عنك أيها الفرنسي العظيم.

الملك (يتقدم نحو ببيرس): يا الله! (يسلم على ببيرس فيسلم عليه) إنك كبير القلب أيها الأمير، فكيف جئت إلى هذه الدار؟

ببيرس: كنت ماراً بهذا النجع فسمعت صوت استغاثة، وعلمت بما كان من بعض أهله وهممت أن أننتقم فأقسمت على هذه الكريمة (مشيرًا إلى صافية) إلا أن أرحل بها على الفور، وتوسلت إلى هذه الفتاة الطاهرة (مشيرًا إلى مريم) أن أخذها معي. فما سرت بهما حتى رأيت أخويك قد خرجا من الدار ودهمناني من وراء ظهري.

الملك: يا الفضيحة الأبطال!

بيبرس: لماذا استصحيتهم أيها الملك قبل أن تتم عليهما درس المروءة؟ إني أراهما من السوق أو أدنى.

الملك: أتسمع هذا يا بواتيه؟ أتسمع يا دارتوا؟ لعمري إنه ليدمغكم بالحق.

بيبرس: ما خاب ظني فيك أيها الملك، لقد عذررت وأعذررت فتقبل شكري وثنائي.

الملك: شكرًا.

بيبرس: هل للملك أن يجibني لماذا يغزو بلادنا اليوم وقد حاول قومه ذلك من قبل على يد يوحنا دوبريان فأعجزناهم بقوة الله؟ والتمسوا الصلح ضارعين وأجبنناهم إليه مكرهين وأقسموا على الولاء؟

الملك: هي مشيئة الرب أيها الأمير وعهدنا معه، وما أنا مما ينقض العهد، ولقد جاءكم كتابي فإذا سلّمتم أو أبیتم فرمينا أعناقكم بأسیاف القضاء.

بيبرس: إذن فلتكن مشيئة الله أيها الملك، لو كنت تجهل أسيافنا لذكرنا بها ولكنك ذقت شواطها غير مرة، وهذه أيام إن كان لك أولها حتى اليوم فعليك آخرها وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينتقلون، أفياؤن لي الملك بالانصراف؟

الملك: إذا شئت أيها الأمير، أنت ضيفنا الآن لا عدو، على أن تنزل عن سيفك هذا.

بيبرس: أنزل لك عن سيفي؟

الملك: أجل.

بيبرس: إنه ليرد مشيئة الدهر أيها الملك، كذلك عوّدتي منذ ضحيتي وما عهد بالجيرة منكم بعيد.

الملك: أعرف ذلك أيها الأمير، فليس من الشهامة ولا من المروءة أن تنازل به الأقران.

بيبرس (بتعجب ودهشة): لماذا؟

الملك: لأنه مسحور، أليس هذا السيف سيف رمسيس عثرت عليه في أحد القبور

صاحبك حتى اليوم ووقاك ضربة الفارس الكمي، ولو وقفت دونه لا تبدي حرaka؟

بيبرس: وي! وي! من أين لك هذا؟ لا يليق بمثل الملك لويس أن يقول هذا الكلام.^١

^١ يؤخذ من كتاب جوا نفيل أن لويس كان من يصدقون بمثل هذه الخرافات.

الملك: كيف لا أصدق و كنت عند البحيرة لا تشير به إلا قاتلا، ولا تهوي به إلا لاحداً ولا تشرعه إلا والآنفوس عالقة عليه كما تعلق ذرات الحديد بالغانطيس؟

بيبرس (يضحك ساخراً): كلا أيها الملك، ليس هذا السيف سيف رمسيس وإنما لأكله الصدأ بل إنما هو سيفي أنا، سيف ركن الدين بيبرس البندقداري، تتناول المقبض منه قبضة مني لو تناولت رأس الأسد الغضنفر لتهشم، أو صفت هام ذي الغفارة المزرد لتحطم، أو لست عنق كند مصعر خده لاندك وتهدم، لقد سقيته في الكرك وحمص ماء حياة ألف من الإسبطاريين ومثله من الميكاليين، ورويتها أرواح الجحفلين من الفرنجة حيال طبرية وأنطاكية وطرابلس، فأصبحت وعمرى بذلك عمر الألفين، وعزمي عزم الجحفلين، ولو نزلت لك اليوم عنه معاوضة من حديدة أخرى ما فترت همتى ولا كلت عزمتى، وإليك برهان المقال. (يلقي السيف من يده مجرداً ثم يخرج من بين ثيابه بوعاً صغيراً من الذهب وينفخ به مرتين ثم ثلثاً).

الملك: شكرأ لك أيها الأمير، الآن أطلق سراحك، شكرأ لك على نزولك عن هذا السيف واعتذراً إليك مما أصاب الفتاة.

بيبرس (بدهشة عظيمة): وي! (يعد صوته فيها).

الملك: وأهب إليك أخت أميرتكم على أن ترد إلينا ربيبة خادمنا برnar، فما قولك في هذا؟

بيبرس: يالله! أعطني عوض السيف وتكلم، أم رهبة كانت دعتك لا إكراماً؟

الملك: بل إنني رأيتك في قبضة أخي فرأدت أن أسدى إليك خيراً يروى، رد إلينا فتاتنا.

مريم: لن أبقى بهذا النجع بعد يومي.

برnar: مولاي! إني رجل مسن، من يخدمني من بعدها؟

الملك: إنها أختنا في المسيحية يا بيبرس، وأنا أمين المسيحية حيث أكون فلا بد أن تردها إلينا.

بيبرس: إنك تمني نفسك الحال أيها الملك، إن كانت هذه الفتاة مريم أختا لكم في الدين فهي أختي في الوطن والوطن أبقى.

مريم (تمسك بأردان بيبرس): لم تعد بي حاجة إليكم أيها القوم، وأشهد اللهم إني في المسلمين (تنزع صليباً كان معلقاً في سبط على صدرها وتلقيه في وجوههم) سأذهب معك يا بيبرس فلا تتركني.

بيبرس: لا يخيب بيبرس رجاء مستغيث، هيأ بنا (يلتفت صوب الساقية ويشير الملك إلى أحد الجنديين بالتقاط سيف بيبرس وبيبرس ملتفت عنه).

صفية (ولكن صافية ترى هذه الإشارة فتجري إلى السيف وهي تجرد من صدرها خنجرًا صغيراً تضرب به الجندي في ذراعه فتريت متاؤها قبل أن يلمس السيف، وتنالوه هي عن الأرض وتجرى متراجعة صارخة لبيبرس): سيفك يا بيبرس! (تنالوه السيف بيدها اليسرى فيأخذه منها).

الملك: إذن فدمك عليك، قسراً أيها الرجال.

(بيبرس يكون قد هجم عليه بواتيه ودارتوا بالسيف، فيحارب بيمنيه مداوراً فإذا بلغ برنار أمسك ثيابه بيده اليسرى ووضعه في مواجهة دارتوا دريئه له، ثم ينقض على بواتيه فيجرحه ويسقط السيف من يده فيجري من وجهه، وعندئذ يرمي بيبرس برنار من يده فيقع ثم ينهض ويخرج هارباً من باب داره، فيرسل الملك على بيبرس جنديه الآخر، وينازل بيبرس هو أيضاً، وإذا بالعبد مسعود قد دخل فرأى ما فيه سيده فيقول).

مسعود: يا غارة الله! (يجرد سيفه ويهجم على الجندي فيفر من أمامه ويميل على الملك، فيجري الملك هو ودارتوا وراء الصفافة ويجري بيبرس والعبد وراءهما).

صفية: بيبرس! بيبرس! لا تتركني.

بيبرس (يعود): ارجع يا مسعود (يعود مسعود).

صفية: أحضر الجواد يا مسعود.

مريم: ها هو ذا قد حضر بنفسه ليشهد هزيمة الأبطال (تجري صوب الساقية وتجر الجواد من لجامه).

بيبرس: مرحباً، تأبى إلا أن تشهد وقيعة مولاك؟ ها أنت ذا تراهم يفرون، هلم يا صافية اركبي.

صفية (تركب) : شakra الله.

بىبرس: وأنت يا مريم تعالي اركبى وراء مولاتك (يأخذها من ضبعيها ويرفعها وراء صفية) سر بالجواب يا مسعود (يلتفت إلى الوراء) وأنتم إليها الأمراء الكاذبون إن كان يبلغكم الآن صوتي فاعلموا أنني كرهت أن أتابع الجناء (يخرجون).

الفصل الثالث

المنظر

يزاح الستار عن رحبة قصر الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ في المنصورة، والرحبة يكتنفها جدار سور عال يرى في مواجهة الناظر وإلى يساره، وفي الجزء الأيسر من هذا السور بالقرب من الركن الأعلى باب كبير هو الباب العام للقصر، وهناك بناء منزل إلى اليمين عربي الطراز يصعد إلى مدخله بدرج طويل من الرخام يبتدئ من مؤخر المزاح بحيث يكون بينه وبين السور مسافة كبيرة، وبينتهي الدرج بشرفة مربعة ذات قبة محمولة على أعمدة من الرخام، وباب المنزل ظاهر من تحتها، وهناك باب صغير إلى الجانب الأدنى من الدار يفتح على الرحبة، وأمام البيت شجرة تحتها مقعد، يرى صبيح الحبشي جالساً على المقعد، وهو لابس قميصاً من الصوف الأبيض قصيراً تمنطق عليه، وفي المنطقة سيف وعلى ظهره عباءة من الصوف.

صبيح: ترى أتظل المنصورة عامرة بأهلها، أم ينتاب هذه الدولة ما انتاب الفواطم من قبل؟ ما للمدينة هادئة ساكنة كأنما هاجر منها أهلها؟ أيتها المنصورة الحبيبة إلى نفسي لم يمض عليك في الدنيا ثلاثون عاماً كنت فيها جنة الجنات، يخطر في رحابك الملوك وتتفخر بجناتك السلاطين، أين سيدك الذي ابتناك؟ أين السلطان الكامل؟ أين موساك وأين عيساك، ترى أتمضي بك الهزيمة أم أن نجمك مشرق في السماء؟ لكانني والله في بيداء تتباوب فيها الأصداء، رب لا أسألك رد القضاء ولكنني أسألك اللطف فيه.

(يدخل سهيل من باب الجدار).

سهيل: صبيح!

صبيح (يلتفت): من هذا؟ سهيل؟ مرحبا، ماذا جاء بك في هذه الساعة؟

سهيل: كيف حال السيدة صفية؟ (يسلم عليه).

صبيح: بخير، لعلها الآن نائمة، ولكنني لا أدرى لماذا أمر الأمير بيبرس بنقلها إلى هذى الدار هي ووصيفتها القبطية؟ إنه لم بين عليها بعد حتى يكون له كل هذا.

سهيل: هي له على كل حال يا صبيح بإذن مولاك السلطان الصالح ورضاه.

صبيح: أعرف ذلك، ولكن العادة عندنا ...

سهيل: أية عادة يا صبيح! أسبقت مولاك من كيما لتقول لنا هذا الكلام؟ لو كانت سيدتنا صفية بنتا للسلطان نفسه ما أباها عليه، إنه زعيم هذه الدولة ولا مراء، هون عليك. لعمري لو أتنى حُيرت ...

صبيح (يقطّعه): أجل أجل. ولكن أما كان أولى أن يبقيها في جوار أختها في مثل هذه الآونة؟

سهيل: إن أختها آتية إلى هذه الدار.

صبيح: آتية إلى هذه الدار؟

سهيل: أجل.

صبيح: ولماذا تترك قصرها؟

سهيل: كذلك رأي محسن وبىبرس وستعرف السر في ذلك حين يحضرون بها.

صبيح: ومتى تحضر؟

سهيل: الآن، إني خليةت القصر وهي تركب محملها الصغير، ولعلها لا تبعد الآن عن هذى الدار كثيرا (يذهب ويطل من الباب) انظر (يشير إليه بالقدم) أترى هؤلاء المشاعلية والضوئية.

صبيح: مرحباً مرحباً بشجرة الدر، ما رأيت في النساء مثل هذه المرأة تُقى وحزماً.

سهيل: ولا في الرجال والله يا صبيح.

(هنا تدخل المشاعلية والضوئية يتقدمون شجرة الدر في هودج صغير على شكل محمل مصر، وإلى جوارها بيبرس وفخر الدين ومحسن سائرين على الأقدام وهم في عدة القتال من خوذ ودروع وسيوف، ويكون لباس الضوئية لباس صبيح تماما).

محسن: أنزلوا المحمٰل عن الأعنٰق يا رجال. (يضعون المحمٰل وتنزل منه شجرة الدر ملئته ثم يسترسل محسن موجها الخطاب إلى صبيح) وأنت يا صبيح خذ المحمٰل إلى مكان من حظيرة هذا القصر، وليقف من يبقى منكم على مقربة من مدخله.

صبيح: سمعا يا مولاي (يأخذون المحمٰل ومعهم صبيح ويسيرون به وراء الدار من أعلى المرزح) من هنا، إلى اليمين (ويخرجون وتنتمي شجرة الدر حتى تجلس على المقدٰد).

شجرة: أترى هذا المكان آمن يا ركن الدين؟

بيبرس: أجل يا سيدتي، إن الفرنسيين يحاولون أن يعبروا مخاضة في أهداب بحر أشمور دلهم عليها خوان ممن تتكشف نفوسهم عن فطرتها في مثل هذه الأيام. ولكن عز الدين وقطز وقلانون ولبان وتنكز قaudoun لهم على الماء بالمرصاد.

شجرة: فلماذا حملتوني على مغادرة قصري؟

محسن: إنما الحازم من تدبر يا مولاتي، إنما وإن كنا نثق بأخواتنا ونعلم أنه لن يفلت منهم خيال فرنسي إنما نتخدّل الحيطة ولا بأس بها في مثل هذه الأيام.

بيبرس: إنما قليلون في هذه البقاع، ونخشى أن يؤثر العدو قتل بعض رجاله في هذا العبور على أن يظل يتفاً نيرانا الإغريقية وبئس الظلال، كم من فارس قتلناه، وكوند¹ من أقرباء الملك أسرناه، وبرج لهم أحقرناه، وكم مركب أغرقناه وجسر هدمناه، وكم طلعنا عليهم بكل حيلة، فهل تعجبين أن يقدموا على العبور مستيئسين، وإذا قدر لهم دخول المنصورة كان أول همهم أن يدهممو القصر ويأسروا مولاتنا، فما هم هؤلاء إلا أكبر حرماتنا: الدين والعرض.

محسن: أجل فإنهم يعلمون أننا نجد المرأة شرفاً ماثلاً.

بيبرس: وفـد اجتمع لولاتنا أدامها الله آيات ديننا وجلال سلطاننا؛ لذلك رأينا نقلك إلى دار الأمير فخر الدين هذه، حتى إذا قدر لهم أن يدهممو القصر كنت في مأمن من أذاهم وأعملنا نحن السيف في رقباهـم.

¹ هكذا كانوا ينطّقون بكلمة «كونت».

شجرة: شكرًا لكم لقد أصبتـم.

فخر: ولكن ماذا فعلتم بالجواري؟

محسن: أَشْخَصَتُهُنَّ صبيحة اليوم إلى سمنود يحرسـهن بعض جنـي.

فخر: وماذا فعلتم بأوراق سلطـاناـنـاـ؟

سـهـيلـ: هيـ فيـ حـرـاسـتـيـ ياـ سـيـديـ الأـتابـكـ.

فـخـرـ: أـهـيـ فيـ المـنـصـورـةـ؟

سـهـيلـ: هيـ فيـ حـمـىـ السـلـطـانـ أـيـهـ الـأـمـيـرـ.

فـخـرـ: حـسـنـاـ وـلـكـنـ (يلـتـفـتـ إـلـىـ شـجـرـةـ الدـرـ)ـ أـمـاـ كـانـ أـوـلـىـ أـنـ تـكـوـنـ مـوـلـاتـنـاـ (يلـتـفـتـ إـلـىـ بـيـرسـ)ـ عـلـىـ رـأـسـ خـاـصـتـهـاـ فـيـ سـمـنـوـدـ؟ـ إـنـهـ أـمـنـ مـنـ الـمـنـصـورـةـ عـلـىـ كـلـ حـالـ.

شـجـرـةـ (تـتـهـضـ):ـ إـذـاـ لـمـ تـكـنـ هـذـهـ الـمـنـصـورـةـ دـارـةـ أـمـنـ وـنـصـرـ فـمـاـ سـمـنـوـدـ إـلـاـ الـقـطـيـعـةـ وـالـشـرـ،ـ إـنـ خـاـصـتـيـ الـيـوـمـ الـرـجـالـ لـاـ النـسـاءـ يـاـ فـخـرـ الـدـينـ،ـ وـقـدـ أـلـقـيـتـ إـلـيـ زـمـامـ الـدـوـلـةـ وـوـكـلـتـ إـلـيـ جـمـعـ أـمـرـكـمـ حـتـىـ يـأـتـيـ سـلـطـانـكـمـ،ـ فـمـنـ الـخـطـلـ أـنـ أـتـرـكـمـ فـيـ حـوـمـةـ الـوـغـيـ ثـمـ أـمـضـيـ.ـ بـلـ هـلـ يـصـيـبـ الـأـنـىـ شـجـرـةـ الدـرـ وـدـوـنـ دـارـهـاـ بـطـلـ مـنـكـمـ؟ـ كـلـاـ وـالـلـهـ،ـ أـلـاـ إـنـيـ إـذـاـ تـلـفـتـ فـلـمـ أـجـدـ قـرـيـبـاـ مـنـيـ جـعـلـتـ مـنـ هـذـاـ خـنـجـرـ بـدـيـلـاـ مـنـهـ (تـجـرـدـهـ)،ـ إـذـاـ خـطـاـ إـلـيـ بـاعـ بـعـدـكـمـ بـأـنـىـ كـانـ خـنـجـرـ أـسـرـعـ مـنـهـ خـطـواـ إـلـىـ قـلـبـيـ،ـ لـاـ اـفـتـدـاءـ لـشـجـرـةـ الدـرـ،ـ وـلـكـنـ عـصـمـةـ لـأـمـيـرـةـ فـيـ الـمـسـلـمـيـنـ أـنـ تـقـعـ فـيـ أـيـدـيـ الـصـلـيـبـيـيـنـ.

بـيـرسـ:ـ مـرـحـىـ لـسـيـدـةـ النـسـاءـ.

شـجـرـةـ:ـ فـإـذـاـ مـتـ إـلـىـ جـوـارـ رـجـالـ وـسـالـ دـمـيـ خـلـيـطـاـ بـدـمـاءـ أـبـطـالـيـ،ـ زـُفـقـتـ يـوـمـ الـحـشـرـ إـلـىـ الـجـنـةـ شـهـيـدـةـ فـيـ الـشـهـادـةـ،ـ تـحـفـ مـنـ حـوـلـ الـمـلـائـكـةـ الـأـطـهـارـ وـلـنـعـ عـقـبـيـ الدـارـ.

محـسـنـ:ـ طـوـبـيـ لـكـ يـاـ سـيـدـيـ.

سـهـيلـ:ـ يـقـلـ فـيـ النـاسـ مـثـلـ هـذـاـ التـقـيـ،ـ لـقـدـ وـالـلـهـ صـدـقـ أـقـطـاـيـ.

شـجـرـةـ:ـ وـالـآنـ أـيـهـ الـأـمـرـاءـ لـيـسـ الدـوـلـةـ بـسـلـطـانـهـاـ إـنـمـاـ هـيـ بـرـجـالـهـاـ،ـ كـذـلـكـ أـجـمـعـ رـأـيـكـمـ لـيـلـةـ النـوـبـةـ،ـ وـالـسـاعـةـ آـتـيـةـ لـاـ رـبـبـ فـيـهـاـ فـأـمـاـ نـصـرـ يـطـمـئـنـ بـهـ مـضـطـرـبـ الـأـمـرـ،ـ وـإـلـاـ فـإـثـمـهـاـ عـلـيـكـمـ،ـ هـذـهـ سـاعـةـ لـهـاـ مـاـ بـعـدـهـاـ،ـ فـمـنـ قـضـيـ فـيـ ذـمـتـهـاـ شـهـيـدـاـ تـفـتـحـتـ لـهـ أـبـوـبـ الـجـنـةـ مـشـكـوـرـاـ،ـ وـمـنـ عـاـشـ بـعـدـهـاـ كـرـيـمـاـ أـزـلـفـتـ إـلـيـهـ طـبـيـاتـ الدـنـيـاـ مـأـجـوـرـاـ،ـ وـلـثـوـابـ الـآـخـرـةـ خـيرـ وـأـبـقـيـ.

ببيرس: أيتها الأميرة ما دامت هذه السيوف في أيدينا، وهذا الإيمان في قلوبنا، والحق في جانبنا، والله بعينه يرحبنا فالنصر بإذن الله لنا.
محسن: أما أنا (متمثلا).

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي
فخر (متمثلا):

لي ذلة إليكم فأعتذر سوف أكيس بعدها وانشمر
وأجمع الأمر الشتت المنتشر

شجرة: الآن أستودعكم الله أيها الأمراء، سيروا على بركة الله، وأقرئوا الأجناد مني
السلام (تصعد درج الدار حتى تختفي وسهيل وراءها).

ببيرس: السلام على مولاتنا ورحمة الله.
فخر: أين تذهب الآن يا ببيرس.
ببيرس: سأرابط بجيسي عند القصر حتى إذا جاءوا إليه حكمت السيف بيدي
وبينهم.

فخر: وأنت يا جمال الدين؟
محسن: لا يهمني من هذه الملحمة إلا أن أظفر بملكهم حيا أو ميتا، وسأتربيص
بهم.

فخر: ألا تخشى أن يصرك ناظورهم فيأخذوا عليك الطريق؟
محسن: سأسير بجندى جنوبا ثم ألت على عقيصة البحر، فإذا سار الملك بجنده
عندها ضربت في ساقته إذ ذاك، وتناولت رأسه وانضممت بعد ذلك إلى قطر.
ببيرس: لا بأس بذلك، ولكنني أخشى أن يطول بك المسير.

فخر: لا خوف من ذلك، إنني حشدت رجالى على الجانب الغربي من النيل، وحملت
شوانى وسفني مفككة على ظهور الجمال إلى بحر المحلة، وسينزل بها رجالى حتى إذا
ساروا بها إلى البحر الكبير دفعوا شوانى الفرنسيس إليك يا ببيرس امض فيما أنت فيه
يا جمال الدين.

محسن: توكلت على الله (ينادي) صبيح.

صبيح (يدخل): مولاي.

محسن: هيئ جيادنا.

صبيح: سمعا يا مولاي (يخرج من الباب الكبير).

محسن: استودعكم الله (يعانق فخر الدين) في ذمة الله يا فخر الدين.

فخر: في ذمة الله يا محسن.

محسن (يعانق بيبرس): في ذمة الله يا بيبرس (يخرج محسن من باب الرحمة).

بيبرس: في ذمة الله، (يعانقه ويخرج محسن) وأنت يا فخر الدين أرى أن تبقى الساعة بدارك ريثما تنقض عنك غبار الجهاد، إن الفرنجة لا يستطيعون الآن فكاكاً.

فخر: كلا كلا. ليس هذا أوان الراحة والعدو ملح علينا، ولكننا الآن في ساعة لا نعرف أنجوزها إلى الدنيا أم إلى الآخرة، فلا بد لي من التوضؤ والصلوة لله، حتى إذا توفاني إليه لقيته طاهراً، أستودعك الله (يهم بعناقها).

بيبرس: أستودعك الله يا فخر الدين (يتعانقان ثم يخرج فخر الدين مارا من وراء الدار فيسترسل بيبرس متأنرا) ياش! لماذا ضمني فخر الدين هذه الضمة! لعمري ما شعرت بمثلها إلا في صدر أبي، أفرقا يا فخر الدين؟ اللهم لا تفرق بيننا، فإن كنت كتبت له دارك قبلي فأشفعه بي، إن الحياة لا تطيب لي من بعده.

صفية (هنا تبدو صفية تحت القبة وتنزل الدرج، فإذا ما وصلت إلى آخره قالت):

ألا تطيب معي يا ركن الدين؟

بيبرس (يلتفت إليها): سيدتي (يتقدم إليها ويحتضنها). أجل، أيتها الحبيبة، أنت كل الحياة عندي، أم رابك وداعي لفخر الدين؟

صفية: لقد حسبت كل فؤادك لي يا بيبرس؟

بيبرس: هو كذلك يا كل مناي.

صفية: فلماذا أبيت أن تعقد لنا أختي يوم عدت بي إليها؟ حتى لا تفارقني لحظة.

بيبرس: آه يا صفية، أظنني أني كنت أستطيع البقاء في جوارك.

صفية: لم لا؟

بيبرس: هل رأيتني جئت القصر منذ عدت إلا مرات معدودة؟
صفية: لقد جئت خمس مرات، لم أجتمع بك فيها إلا مرة واحدة وكانت فوقاً ثم لم تبعث إلي فيما بقي منها بسلام.

بيبرس: وي! ألم تحمل إليك أختك عني شيئاً أبداً؟
صفية: إنها لم تحدثني منذ جئت إلا قليلاً، كلما حاولت أن أخلو بها رأيتها بين أوراق ورسائل وقصص، ثم لا تخلو لحظة حتى يتقدم إليها فارس من قبلكم في شورى أو في نبأ من نائب السلطنة في القاهرة.

بيبرس: وماذا في ذلك يا صفية؟ (ينظر إليها نظرة العاشق الطروب).
صفية: إنكم أفسدتم أختي يا بيبرس بما عهدم إلينا، إن النساء لم تخلق لهذا العناء، أما ترى ورد وجنتيها قد ذبل وهي في ريعان الشباب.

بيبرس: حسبي ورد هذى الخدود يا صفية.

صفية: دع عنك هذا، لماذا لم تقول الأمر عنها؟

بيبرس (يضحك بلهف): وي! أأنت تؤثرين ...

صفية: كلا، ولكنك كنت تبكي قريباً مني.

بيبرس: ومصر يا صفية؟ من ذا ينقذ مصر والعدو ملح علينا؟

صفية: كنت تذهب لقتاله من حين إلى حين.

بيبرس: كذلك فعلت يا أحب الناس إلى، فلم أستطع أن أزور القصر إلا خمس مرات في ثلاثة أشهر، أفتبن لك عذري؟
صفية: كلا.

بيبرس: إذن فاصفحني عنى، الله يعلم لم يطل بقاء هؤلاء القوم بديارنا غيرك أيتها الحبيبة.

صفية: غيري؟

بيبرس: أجل، لم أجد لي من زمانٍ ساعة للتفكير في مساومة القوم عن أنفسهم حتى يbedo لي طيف صفية ماثلاً فيشغلني بهاً عن القيام إلى الأعداء، وكأنما أوثر أن تنقضى الحياة في مثل هذا الحلم الشهي فلا ينصرف عنك خاطري حتى يصرف الطيف عنى ناشدُ من أمرائي، فالذنب ذنبك يا صفية.

صفية: إذن فابغضني يا ركن الدين حتى تنتهي الحرب، وتكون مني قريباً كما نحن الآن، ابغضني.

بيبرس: كيف يبغض الإنسان بملكه كل هذا يا صفية؟ (هنا يسمع نفير مذعر مستمر، يلتفت بيبرس يتسمع) وي! (وتبدو عليه علائم الاهتمام الشديد فينهض).
صفية (مذعورة): ما هذا؟

بيبرس: هذا النفير يا صفية. دارك أيتها الحبيبة!
صفية (مذعورة): ماذا جرى؟

بيبرس: إن الفرنسيس قد دهموا المنصورة! الوداع.
صفية: أتتركني؟

بيبرس: سأعود إليك عما قريب، لا تجزعني، خدرك يا كل المني، إني ذاهب الآن إلى القصر فلا يفوتني أن أرقبك، روحي لك فداء يا صفية، ولكن اليوم يومي فإن كان على فهو على مصر كلها الوداع، زوديني بدعواتك.

صفية: الوداع يا ركن الدين، الله معك. ردد الله إلى سالما منصوراً (يتعانقان) في ذمة الله يا بيبرس.

بيبرس: في ذمة الله (يخرج بيبرس مهرولاً وقد شهر السيف في يده وتجلس صفية على المقد ويداها ممدودتان ومعقودتان بين ركبتيها).

صفية: اللهم لا تفرق بيننا ولا تزد حرقتنا عليه ناراً، رده إلى سالما (تفكر مطرقة) لا، إنه لا يفجعني فيه، ويلاه. (تصرخ) بيبرس (تضع وجهها بين يديها وتبكي). وهنا تأتي مريم فترى صفية جالسة على المقد.

مريم: سيدتي صفية! أين أنت؟

صفية: هنا يا مريم، تعالى.

مريم (تنزل إليها): ما لك باكية، أنت بخير يا سيدتي.

صفية: كيف أكون بخير يا مريم والعدو قد دهمنا وركن الدين قد سار وحده إلى القصر؟

مريم: أنت تخشين بأساً على الأمير يا سيدتي؟

صفية: كيف لا يا مريم؟ إن العدو لا يقصد إلا القصر، وقد سار الأمير إليه وحده.
مريم: الله حافظه من كل سوء، لو أريد له أذى لكان ذلك ليلة فارسكور، اطمئنني
يا سيدتي، لا يليق بعروس عنترة المصريين أن تكون إلا عبلة، هذا يوم بيبرس يا سيدتي،
سيلتقي بهم فيفني جموعهم، وتضع الحرب أوزارها ويعود إليك باسمًا، هيا يا سيدتي
تهيئي لعرسك، وتوكلي على الله هلم إلى الدار (تناول يدها).

صفية (تنهض وتميل صوب عتبة الدار هي ومريم): إني توكلت على الله.

(وإذا بهبة الله يدخل، وتكون صفية على وشك صعود السلم، وتلتفت مريم،
ويكون قد غير ثيابه فهو لبس بوغلطاقة^٢ أحمر على قفطان، ومعمم بعمامة
صفراء على كلوته من الصوف).

مريم: وي! من أنت أيها الرجل. ويحي! فيليب؟

صفية (تعود): هذا هبة الله الطبيب يا مريم، لا تذعرني.

مريم: وحق الله يا سيدتي ...

هبة (مقاطعاً): سلام أيتها الأميرة.

صفية: مرحباً بهبة الله.

مريم: هذا فيليب الذي كان يلم بنا في فارسكور.

هبة (يتقدم): كيف لا تعرفين هبة الله طبيب السلطان وامرأته وطبيب مولاتي هذه
منذ أعوام؟ ألا تتذكرين تلك الأيام أيتها الأميرة؟

صفية: بل أذكرها، في حلب على ما أظن.

هبة: أجل في حلب، في حلب.

صفية: ماذا جاء بك يا هبة الله؟ (تعود إلى المقهى وتجلس، ويأتي هبة الله وراءها).

هبة: لا أدرى، ولكنني خرجت من الصلاة قبل أداء السنة فبحثت عن الأمير فخر
الدين لأمر يهمه الوقوف عليه من حركات الفرنسيين فلم أجده، فجئت أنشده في داره
أم ترينني أخطأت؟

^٢ معطف كان لبس القوم يومئذ، وهي أصل كلمة بالطرو.

صفية: كيف هذا؟ هذى دار الأمير فخر الدين ولكن هجرها بأهله منذ أسبوع
وجيء بنا إليها ليلة أمس، أفلأ تدرى ذلك؟
هبة: كلا، أترأه عسکر على الشاطئ؟

صفية: ولا تدرى هذا أيضًا، إن الشاطئ قریب تلمحه العين أفتكون من رجال
القصر ولا تدرى؟ أين كنت هذه الأيام؟

هبة: نحن الأطباء لا يعنينا إلا تولي المرضى بالعناية أعداء كانوا أو أصدقاء.

صفية: يا عجبي منك يا هبة الله، ليس الطب إلا عرضًا، ولو لم تكن طبيبًا لكنك
كاتبًا أو أميرًا، ولست أظن أحدًا من هؤلاء يجهل مكانه الآن من هذه الحرب الضروس،
بل ألم تجيء الآن تنهي إلى فخر الدين أمراً يهمه الوقوف عليه من حركات الفرنسيس؟

هبة: صدقت يا سيدتي، ولكن لعلها هموم تنسى الإنسان نفسه فلا يدرى ماذا
يقول، أين الأمير بيبس الآن؟

صفية: ذهب إلى القصر لحراسته ثم يعود إلينا إن شاء الله سالما، كذلك وعدني
ولن يخلف الله وعده.

هبة: كتب الله له السلامة.

صفية: أمين.

هبة (يبلغ ريقه): هل من شربة ماء؟ (يتلفت) ليكاد الظماء يقتلني.

صفية: على بکوبه ماء يا مريم، إن هذا اليوم كأيام الصيف، وإن كنا في أذیال
طوبه.^٣

مريم (تذهب وهي تتمتم): فيليب بعينه، إني لا أستغش عيني.

هبة: الآن أستطيع الكلام.

صفية: وماذا كان يمنعك منه؟ أنت تخشى مريم؟

هبة: مريم؟ فتاة فارسکور؟ كلا، ولكن خبريني يا سيدتي، ألا ترين أنی أتعلّم
ولا أدرى ماذا أقول؟

^٣ كان ذلك في يوم الثلاثاء الذي يقع قبل الصوم الكبير، ويكون عادة في فبراير.

صفية (تضحك متهكمة): لعله حر الشتاء قد آذاك أيها الطبيب!
هبة: أجل يا سيدتي ولكنه حر الشوق إلى ساعة قضيتها في حلب منذ عامين. لقد كنت أجالس يومئذ فتاة ساحرة العينين تصغر عنك سنتين، وكانت أختها مريضة، وصهرها مشغولاً بالقتال، وهي قلقة البال عليها، فوعدتني هذى الفتاة الرائعة الحسن إن أنا شفيت لها أختها أن تجزيني خيراً فاستوثقت مما وعدت، فآلت على ذلك حلفة ولست أدرى أتذكر الحسناء وعدها أم لا؟

صفية: بلى.

هبة: أتعرفينها؟

صفية (ضاحكة في أدب): كأنني لا أجدها.

هبة: وقد جعل الله شفاء أختها على يدي والحمد لله، ولكنها لم تف لي بما وعدت.

صفية: وبعد الشقة يا هبة الله.

هبة: الحمد لله على ذلك.

صفية: لماذا؟

هبة: كأن الله لم يجدني أحوج إلى براها بالوعد مني إليه اليوم، فأرجأني حتى ساق قدمي إلى هذا المكان، ترى أتصدق الحسناء وعدها؟

صفية: أجل يا هبة الله إن استطعت.

هبة: إذن فحاجتي إليك أن تخبيئني في هذا القصر يوماً كاملاً.

صفية: أخبرك في هذا القصر؟

هبة: أجل يا سيدتي.

صفية: ولماذا؟

هبة: لأنني نظرت في أسطر لابي فعلمت أن يوم الثلاثاء هذا عصيب عليّ، وإذا جاء الليل وقد علم بمكانني أحد غير أحب الناس إلى فإني هالك.

صفية: أنا أحب الناس إليك؟ شكرًا لك يا هبة الله، إنك موضع ثقة أهل القصر جميماً، فلا غرو أن نراك فيمن نعزع ونكرم.

هبة: شكرًا لك يا سيدتي، ولكن حبي إليك حب يعلم الله وحده نجواه، وهذا القلب وهذى العين، رأيتك في حلب فكأنما رأيت الحور، فلما بقيت بها وجئت مضطراً في ركاب السلطان إلى مصر كدت أزل بنفسي سرفاً.

صفية: وي! لماذا؟

هبة (حائِرًا): لأنك كنت يومئذ مريضة، وقد كنت أرجو ...

صفية (تنفس): شكرًا لك.

هبة: ولقد قاسيت من أجلك ما يقاسي المحب اليائس راضيًا بذلك مستسلماً.

صفية: المحب اليأس!

هبة: أجل يا سيدتي، حتى علمت أنك وقعت في يد الكونت دارتوا فككك أقضى حزنًا؛ لأنني أينقت أن قد ضاعت بقية الأمل الذي كنت أحيًا به في هذه الدنيا.

صفية (تنفس ذعراً): أي أمل تعني أيها الطبيب؟

هبة: آه. أنا. لا شيء. أريد. أجل (يتكلم وهو ينظر إليها متفرسًا على مهل ويطرق من آن لآن) أعني أنك إذا ظللت في يد الكونت وجاء يوم الثلاثاء هذا ولم أجد (تبعد على صفة علامة التفور من الرجل في نظرتها فيسرع هو في حديثه وكأنما قد وجد حيلة تتطلي عليها فسرّ بها) وأنت أحب الناس إلى، حتى تجدي لي مكانًا خفيًا عن العيون فقدت أمي في البقاء.

صفية (كأنما سرّي عنها): ها، فهمت. إني سأجيك إلى طلبك (تنهض) لماذا تأخرت يا مريم؟ مريم! (تمشي خطوة) سأستعجلها وأبحث لك عن المكان اللائق.

هبة: شكرًا لك يا سيدتي (يميل على يدها لتقبيلها فتسرير صفية ولا يدركها وهي لا تلاحظ ذلك، وتدخل القصر ويقف هبة الله ناظرًا إليها نظرة العاشق الأبله اليائس) لقد منيت نفسي قبلة من يدها فأبكيت على ذلك، واتعسي وخيبة رجائي! لماذا لا تكون هذه الفتاة لي عروسًا؟ أفالنا أدنى منها محتدًا ونسبيًا؟ لماذا لا يكون لي في هذه الدولة فوق ما طفت! أفالنا أقل من قومها فضلاً وحسبًا؟ (يسكت ويعود إلى المقعد ويقعد) لابد منها، إني أحبها، أريد لها لنفي، هذه أول المني وأخرها. (يسكت ويطرق ثم يقهقه) ما عجبت لشيء في الدنيا عجبي لأمال نفسي، ولكن لا بد من الظفر بها على كل حال وها نحن أولاء في سبيل النجاح، لقد دللتهم على المخاضة في آخر البحر فدخلوا المنصورة، ولم يبق إلا أن أتم ما عزّمت عليه، هذا دارتوا آت هنا، وهذا بببرس؛ أحدهما قاتل أخيه فأخلص منه. ولكنني أفعل بالقاتل من ورائه ما أريد. ولكن ماري «لعنة الله عليها» لقد عرفتني وستفضح أمري إذا أنا توانيت (هنا تأتي، مريم فيننظر إليها هبة الله شرّاً ويلكلها مغضبًا) عجل بماله يا ماري، لماذا غبت عنّي؟ لقد كاد يقتلني الظمآن.

مريم (فزعه): لم أعرف مكان الكوب ولا الماء حتى دلتني عليه مولاتي، إننا لم نهبط هذا القصر إلا طليعة اليوم.

هبة: ها! شكرًا لها (ينظر في الماء بعد أخذة الكوب منها) أخشى أن يكون آسناً كمياه دمياط يا ماري. ألا تذكرينهما (يرمي بالماء على الأرض فترتعد فرائص مريم).

مريم: ما طرقت دمياط في حياتي أبداً.

هبة (يضحك ساحرًا): لقد طرقتها لأول مرة على ما أظن منذ سبعة أشهر أنت وشيخ مسن يسكن فارسكور، أجل. أرسلك إلى بعض النساء في مهمة كنت فيها أبليس بعينه، وتعرفين طعم الماء فيها حقاً (ينظر إليها نظرة الظافر المفترس).

مريم: ويلاه.

هبة: إليس الأمر كذلك؟

مريم: كلا، إنني ما ذهبت إلى دمياط بتة.

هبة: لا تكذبي، إنك أرسلت من قبل برنار صاحب النجع إلى الأمير فخر الدين صاحب هذه الدار بذاتها، أتظنين أنني أجهل من أمرك شيئاً يا ماري؟ (يقهقه).

مريم: وماذا في ذلك؟

هبة: إذا لم يكن فيه بأس عليك فلماذا ذعرت؟ ألا يحدثك القلب بشيء؟

مريم: أتظن أنهم يجزونني على ما فعلت فيما مضى؟

هبة: كيف لا؟ إنهم لا ينسون للمسيء إساعته، انظري ماذا سببت لهم: ضياع مدينة بمالها ورجالها، وقتل خمسين من أمرائها، وأنت أحق أن تقتلي.

مريم: أتظنهم الآن يقتلونني؟

هبة: أفي ذلك شك؟

مريم: ولكن من ذا يخبرهم بجريمي وقد قتل برنار؟

هبة: برنار قتل؟

مريم: كذلك خبرت.

هبة: لست أظن ذلك، على أنه إن كان قتل فإن أخي فيليب حيٌّ يرزق.

مريم: أهو أخوك يا سيدتي؟

هبة: أجل إننا توأمان، ولكنه بقي على ملة قومه هو وبرنار، ودخلت أنا في الملة السمحاء، ولكن هذا لم يفرق بيننا فقد كان يزورني كثيراً ويفضي إليّ بما في نفسه وقد أخبرني بجميع أمرك يا ماري.

مريم (تنفس حسرا): آه.

هبة: لا تدعري، إنه سرّ لن يفارق شفتيّ.

مريم (تجثو): شكرًا لك يا سيدتي، إنك لذو مروءة، استر علىّ وارحمني إنني مسكينة يتيمة من أبوّي.

هبة (بيتسم في نفسه): لا تخشي بأساً، إنني لا أريد بك أذى، إكراماً لأخي.

مريم (تقبل يده): شكرًا لك يا سيدتي شكرًا، لقد ضاقت الحياة في وجهي فلا أنا أعرف لي أباً أفزع إليه ولا أخاً أقي حملي عليه، إن بقيت هنا فأنا في خطر من فضيحة أمري، وإن هربت إلى ملك فرنسا انتقم مني على مخالفه أمره ليلة فارسکور، رباه!

ارحمني! ارحمني! إنني أنيب إليك.

هبة: روحـي عنك لا تجزعي، سأكون لك منذ الآن أباً.

مريم: شكرًا لك يا سيدتي، (تنهض).

هبة: أبقي بجوار مولاتك الأميرة صفية لا تفارقها، هذا آمن لك، ولكن حذار أن تذكري صلتي بفيليب أخي أو تتحدى عن تشابه وجوهنا لثلا يقتلوني خطأ.

مريم: لك ذلك يا سيدتي.

هبة: وإذا طلبت إليك عملاً تستطيعينه في الليل أو النهار فأنجزيه على الفور.

مريم: سمعاً وطاعة يا مولاي.

هبة: هذا عقد بيني وبينك، لأسبوع فقط ثم اردد بعد انقضاء الحرب إلى أبيك وأمك.

مريم (باستغراب): أبي وأمي؟ إلى أب وأم؟ (تجثو أمامه).

هبة: أجل، كذلك خبرني فيليب وهو يعرفهما، ولكنه لم يشاً إخبارك بالأمر لئلا تتركي خدمة عمه الشيخ برنار، أما وقد تركتها فأنا أعدك بردك إليهما.

مريم: إذن فإني لك جارية بل دوين الجارية، ردني إلى أبي وأمي إنني لأحسن الآن دبيب الحياة في قلبي.

هبة: سأرك إلى أبيك وأمك، فاطمئني ولكن إياك أن تكاشفي بهذا الخبر إنسانًا.

مريم: محال. محال. لن أكاشف به أحدًا. إني طوع أمرك.

هبة: انهضي (تنهض مريم وهذا تلوح صفية عند الباب الذي بالدور الأسفل على الرحبة).

مريم: مولاتي آتية (يقدم لها الكوب) هنيئا لك يا سيدتي (تأخذه وتخرج صاعدة الدرج).

هبة: شكرًا لك.

صفية: (منادية وهي لدى باب الغرفة): هبة الله (تتقدم نحو المبعد).

هبة: سيدتي (ينهض).

صفية: لم أجد في القصر غرفة أليق من هذه (تشير إلى باب الغرفة التي جاءت منها) وكأن حظك اليوم موفور فإن لها بابين مفتوحهما واحد.

هبة: ما أسعده الحظ يا سيدتي، نعم الوفاء.

صفية: وقد أعددتها لك على عجل وأعدت لك ما تحتاج إليه من طعام ليلة وشرابها، أراني وفيت لك بنذرني يا هبة الله؟

هبة: فوق ما منيت نفسي يا مولاتي.

صفية: إذن فادخلها الآن إذا شئت، ولكن إياك أن يبدو من أمرك شيء لئلا يتهموني بسوء، ثم إذا جاء الصباح فتحت لك الباب.

هبة: حَذَرِي أعظم من حذرك يا مولاتي، إنها حياة لا يبعث بها يا سيدتي فاطمئني، ولكنني أرى أن تعطيني المفتاح أقفل به الباب من باطنه حتى إذا جاء الصباح خرجت

بنفسي دون أن يراني إذ ذاك أحد.

صفية: أليس في ذلك بأس؟

هبة: إني طبيب القصر وكلهم يعرفون أنني ادخل حيث تكون مولاتي بلا استئذان.

صفية: صدقت ها هو ذا المفتاح. ادخل الآن ...

هبة: شكرًا لسيدتي، (يميل يقبل يدها ثم يدخل الغرفة ويقفلها ثم تأتي مريم من القصر مذعورة).

مريم: سيدتي! سيدتي (تنزل على الدرج وتنعطف).

صفية (تنذهب إليها لتلقيها): مريم! ماذا بك؟

مريم: أطللت الآن من النافذة فرأيت فرسان الفرنجة قد دخلوا الأرقة والشوارع حتى بلغوا دار الفارس أقطاى وسيوفهم تلمع في الفضاء وتهوي على الناس رجالاً ونساء وأطفالاً لا تبقي ولا تذر^٤ كأنما جاءوا ليقتلوا الشيوخ والأمهات ويحاربوا الرضع على الأكتاف.

صفية: ويلاه، ألم ترى جنودنا؟ (هنا يسمع صوت نفير المصريين إعلاناً بهجمة العدو).

مريم: لم أشهد جندياً واحداً يا سيدتي، وكأنهم لم يعلموا بما وقع ولكنهم سيعلمون وشيكاً، هذا هو النفير يا سيدتي، إنهم مشغولون في غير هذا المكان، لقد خُدعوا ورببي، غير إني رأيت جناحاً من رجال القصر ترفرف على هذه البقعة.

صفية: ويلاه! اللهم انصر ونجه وارحمنا (طبول ونفير) لقد التحموا (صراخ من الخارج وعويل).

مريم: نحن في مأمن يا سيدتي (جلبة مستمرة ونفير وطبول) إن هذى الدار بعيدة عن الأذى، فقد رأيت الناس يلقون المقادع والأسرة والأخشاب والأحجار في الشوارع والأرقة من نوافذ منازلهم حتى يسدوا الطرق على الصليبيين، وأخذت خيولهم تتعرّث وتسقط بمن عليها ورأيت بعض الشبان قد ركبوا النوافذ وأخذوا يطلقون قسيهم على الصليبيين، وهم على تلك الحال فيوردونهم موارد الحتف العاجل.^٤

صفية: وأين أختي الآن؟

مريم: لقد كانت نائمة في الشقة الغربية من هذا القصر، والكاتب سهيل راقد^٤ كذلك، ثم أفاقت الآن وأخذت تطل من النافذة، علمت أنها لم تتنم ليلة الأمس إلا فواقاً.

صفية: خير لنا أن ندخل الدار، هلم يا مريم (يهمان بالصعود على الدرج وفي أثناء ذلك يلوح بربنار عند الباب متنكراً، وهو محني الظهر وفي يده عكازة يتوكأ عليها).

^٤ كتب التاريخ.

برنار: يا أهل المروءة والخيرات! (تلقت صفية) هل من مأوى لشريد! إحسانكم يا أولى الإحسان! أنقذوني، ارحموا شيبتي وضعفي يرحمكم الله، سيدتي!
مريم: ويلاه! هل كان الباب مفتوحاً؟

صفية: تقدير ربك يا مريم، مسكنين هذا السائل، (ترجع صوبه قليلاً) تعال أيها الشيخ تعال، ادخل.

برنار: شكرًا لك يا سيدتي (يحاول الدخول على مهل كأنه لا يستطيع الحراك ومريم تنظر إليه فینظر إليها فتنعر).

مريم: من هذا يا سيدتي؟ ألا تذكري صوته؟ (هنا يسمع التفير ودق الدفوف النحاسية).

صفية: كأنه صوت برنار، لكنه قتل.
برنار (يعثر بعثبة الباب): وامصيّبته! جرحت رجلي (يقع) خذى بيدي يا ابنتي.
صفية: مسكنين هذا الرجل، لقد كاد يقتله الذعر (تدنو وهو يلتفت إلى الوراء، فإذا قربت مدت يدها إليه فأنمسك بها ونادي).

برنار: دارتوا! دارتوا! (فتصرخ صفية).
صفية: أواه، ببرس! ببرس!

مريم (تجري صارخة في القصر): النجدة! (ويأتي دارتوا ومعه رجال فينقضون عليها يريدون تكميمها).

دارتوا: لقد ظفرت بك يا صفية بعد طول الشقاء، من أجلك خالفت أخي وعانت الهيكلين، ودخلت المنصورة برجالي وحدي.

صفية: آه يا نذل الرجال! أنقذوني! أنقذوني! (ثم يغشى عليها فتسقط).
فخر (من الداخل): ليك (وينزل من القصر إلى رحبه عاري الجسم ليس على رأسه ولا صدره شيء، وإنما هو «متفوط» والسيف في يده ويجرى بينهم وبينه قتال يسقط فيه رجلان من جنود دارتوا، ويخرج هبة الله من الغرفة متلثما والخجر في يده فيطعن الأمير فخر الدين من الوراء).

٥ راجع المقرizi.

هبة: إلى جهنم يا بيبرس.

فخر: أه يا خائن، أهكذا يكون القتال!

برنار: مرحى فيليب.

(يظل فخر الدين يحارب، ويده اليسرى على خاصرته الجريحة ويجفلون أول الأمر من الضربة، ثم يركع ولا يرمي السيف بل يحارب مسطوحاً، وإن يراه الجميع حارراً على الأرض يتركونه، يجري هبة الله إلى صفية وهي لا تزال مغشياً عليها ويضع على أنفها مشموماً من جيشه فتسترخي أعصابها، وهنا يقول فخر الدين محضراً).

فخر:

في ذمة الله سيفي إذ تفارقه كفي وفي صوته مصر وأهلوها

(يموت).

هبة: عاونّي يا برنار.

دارتوا: إلى أين؟

هبة: إلى هذه الغرفة (مشيراً إلى حيث كان) حتى تنتهي الملحمة إني خدرتها بهذا العقار الذي صنعته لي في فارسكور.

دارتوا: أحسنت، سيروا (يسير بها برنار وجندي وهبة الله ويخرجون بها إلى الغرفة مكتمة مغطاة الوجه، وهنا يدخل بواتيه ومعه رجلان).

بواتيه: أين أنت يا دارتوا؟ (يكلمه وهو في حالة غضب شديد).

دارتوا: هنا، انظر: هذا فخر الدين كبير الجندي مجنلاً^٦ ألا تذكره؟

بواتيه: ويحك، أذكره، ولكنك قتله وحده، ولم تدر أنك أهلكت من رجالنا ألفين! إنك لم تنتظر حتى يتم عبور أخيك الملك، وسبقت الهيكلين فأهنتهم بما فعلت، وكذلك استطاع بيبرس أن يعمل السيف في جندي جميعاً حتى لم يبق منهم من يحدث عنهم

^٦ كتب التاريخ.

إلا خمسة رجال فقط، وضرب اللعين محسن في ساقه الملك على غرة فقتل كل رجاله إلا
مئة، وأسر منا حتى الآن ألف وخمس مئة فارس وكند وبارون.^٧
دارتوا: وامصيّتاه!

بواتيه: وكاد يضرب رأس الملك ذاته لو لا أنه ركب لأنقاذك.
دارتوا: ويحي! ويحي! وامصيبيتاه! أين هو الآن؟

بواتيه: ذهب إلى القصر برجالي ورجال جوانفيل ظنًا منه أنك هناك فلم يجدك، فعاد أدراجه فتلقاء بيبرس بجيشه، وقطعوا الطريق عليه وأخذوا جميع رجالك أسرى، ولولا أنه لبس بردة أحد هؤلاء الأعراب واحتفى في بعض الخرائب لكاناليوم في الحالكين،⁷ (يعود برئار والحندي ويقفل هبة الله الباب وراءهم ويبيقي في الغرفة).

دارتوا: وامصيّباته! و المصيّباته! (الطلب والصنوج تدق علانية إلى آخر الفصل).
بواتيه: هلم إلّيه. هلم. لقد خبرت أنك جئت إلى هذا المكان تنشد تلك الفتاة اللعينة،
أهذا وقته يا دارتوا؟ هلم اجمع ما بقي من الرجال لحماية الملك قبل أن يكشفوا مخبأه،
ويل لنا إن اليوم علينا.

دارتوا: يالله! كيف الأقي أخي!
بواتيه: أقتل البندقاري إن استطعت، لا يكفر عن ذنبك إلا هذا وإن فأغمد السيف
في فؤادك، إنني سأكون إلى جانبه، فإن قتله وهبتك شرف قتله، هلم يا رجال.

(يحاولون الخروج، وهنا يأتي بيبرس ومحسن في عدة القتال ومعهما جنود مسلحة، وفي يد أحدهم علم ويكون من بينهم صبيح ومسعود عبد بيبرس).

بيبرس (صارخاً ومتقدماً إلى دارتوا والسيف في يده): ويحكم يا عبيد الشهوات
وأنذال الرجال وحالة بني الإنسان!

محسن (ينظر فيرى فخر الدين مجندلا): فخر الدين! مجندلا!
بببرس: ويلكم يا خونة (دارتوا وبواطيه يذعنان ويشهران السيف باضطراب).

٧ عن جوانفیل الفرنسي.

دارتوا: ليست شيمة الرجال قتل المطمئن، دونك سيفي (يقدم سيفه لبيبرس فيرفض أخذه).

بيبرس: ويحك! وهذا الأمير، أما كان يتوضأ لربه فأذعرتم أمنه، أما والله لن أفلتكم اليوم منها. محسن، **أعمل السيف** «ينزل دارتوا ويتقاتلون جميعا قتالا شديداً والطلب والصنوج لا تنتقطع فيقع بعض الجنود من الطرفين، ويقع دارتوا قتيلا بضربة سيف من بيبرس، ومحسن يصرع ببرار وبواتيه يفر أثناء القتال، وتظهر شجرة الدر تحت قبة الدرج فوق الصدفة، وهي في عدة القتال من خوذة ودرع، وفي يدها خنجر مشهور، وسهيل شاهرا سيفه استعداداً للطوارئ، ورافعاً علماً فوق رأسها فإذا انتهت الموقعة نادى بيبرس ومحسن: «مرحى»، والجنود من وراءهما والسيوف في أيديهم مواجهين شجرة الدر» مرحى! مرحى! «ويدخل أثر ذلك جماعة من الجنود والأمراء المصريين في عدة القتال والطبول والرايات والأعلام وهم يهاللون: مرحى مرحى!)

محسن: سلام على عصمة الدين ... وسيدة نساء المسلمين.

شجرة: وعليكم سلامٌ من الله ورحمة.

بيبرس: لقد انتصرنا بإذن الله.

شجرة: مرحى للرجال، مرحى لأبطال المنصورة.

(تهليل ودق طبول)

الفصل الرابع

المنظر

يزاح الستار عن إيوان في دهليز «فسطاط كبير له أبراج» السلطان طورانشاہ بفارسکور^١ له باب واسع في صدر المزرح، ترى من ورائه سوار وشرع وشوان وبطس «سفن حربية» مصرية في النيل، وبعد الباب صدفة واسعة ينزل منها إلى رحبة هذا القصر الخشبي العجيب، والإيوان مغطى الجدران بالستار الديبقي البيضاء إذانا بمقدم الصيف؛ إذ نحن في أواخر إبريل سنة ١٢٥٠ ميلادية، وفي الإيوان فرش سلطانية وبسط طبرستانية، وهناك إلى يمين المترج دكة مفروشة مائلة الوضع إلى خمس مقدم المزرح، عليها كرسي عال مكفت بالذهب بنقوش عربية، وعليه وسائل من الحرير بدعة الصنع وإلى يمين الدكة كرسي آخر أصغر من الأول، إلا أنه كريم فهو مفروش بالوسائل مثله ويرى إلى الجانب الأيسر مقعد آخر من الأبنوس المكفت وكرسي مثله، وللإيوان منفذان جانبيان؛ أحدهما إلى اليمين، وهذا يضرب إلى دار السلطان، والآخر إلى اليسار، ويضرب إلى حلقة المشورة.

تدخل شجرة الدر من المنفذ الأيمن يتبعها سهيل، وكأنما تتم حديثا، ثم تذهب إلى المقعد الأيسر وتجلس ويظل سهيل واقفا بجوار الكرسي الثاني.

^١ جيء بهذا السلطان على التحقيق بعد موقعة المنصورة بعدة أيام لا كما ورد خطأ في كثير من كتب التاريخ العربية من أنه كان حاضراً هذه الموقعة، وعلى هذا التأثر بنية هذه الرواية. المؤلف.

سهييل: إني لم أر الأمير بيبرس منذ أيام يا مولاتي، لعله ذهب لفاوضة أسيينا ري
ريديفرانس في دار ابن لقمان بعد أن أخفر مسعى الأمير بلبان.

شجرة: ولكن أطال غيبته عنى، أتعلم أنت شيئاً من أمر الأميرة صفية ومريم؟

سهييل: كلا يا سيدتي.

شجرة: هل فتشت شوانى الفرنجة؟

سهييل: لقد نزل الأمير بيبرس بنفسه يفتش عنها كلّ شقّ في تلك المراكب، ولكن
لعلها فيما لم تصل إليه يدنا بعد، وكأنّ الأمير بيبرس قد خال ذلك فذهب إلى الملك في
الأمر.

شجرة: لست أظن الملك يعرف عنهم شيئاً، ويخيل إليّ أنّ الأمير الذي قضي في
دار فخر الدين إذ رأهما في رحبتهما أسلمهما إلى بعض رجاله، فعادوا بهما إلى حيث
يخفونهما عن عيون الملك، لقد نقم الملك من أخيه إيداعها دار شيخ النجع، فلا غرو أن
يخفي أخيه عنه الآن ذلك، ولكن لماذا يأخذون مريم أيضاً إلا أن تكون لصاحب نجع
فارسكور يد في ذلك؟ ألا ترى أن تستفسر منه؟ إنه الآن أسيينا، وقد يرى في أن يدلنا
عليها سبيلاً لنجاته.

سهييل: صدقٍ يا سيدتي، ولكن صاحب النجع قضي بالأمس، قتله ابن الطوري
فيمن قتل من الأسرى.

شجرة: قتله! ألم أرسل هبة الله الطبيب إليه ليكشف يده عنه حتى أراه!

سهييل: بلى، ولكنه قتل بأمر هبة الله نفسه يا مولاتي.

شجرة: وي! كيف ذلك؟

سهييل: لا أدرى ولكن صبيحاً خبرني أن برنار لفّ له عن هبة الله هذا خبراً عجيباً،
فسمعه هبة الله فأهدر دمه على الفور.

شجرة: وما يكون هذا الخبر يا ترى؟ ألم يخبرك به صبيح؟

سهييل: لم يكن ثمة سبيل للكلام، فقد دعاه الملك إليه فلباه وتركني، قد يكون له
بأمر اختفاء الأميرة علاقة، وإلا فلماذا آثر قتله على إطاعة أمر مولاتنا؟ إني أستريب هذا
الطبيب يا مولاتي من زمن بعيد.

شجرة: ترى أين هبة الله الآن؟

سهيل: إني رأيته الآن يتمشى مع مولاي السلطان على الشاطئ (يشير إلى البحر)، فإذا رأيت أن أدعوه إليك بعد عودة مولاي ...

شجرة: أجل. أذهب على الفور (يهم سهيل بالذهاب والخروج)، ولكن قف لا فائدة من ذلك، إذا كان برنار يتهم هبة الله في شيء من أمرها فهل ترى ينفضه هو إلينا؟ خير لنا أن ننتظر حتى يعود صبيح من المنصورة.

سهيل: حسن يا مولاتي، ولكن لا بأس أن تستفسري منه عن سبب مخالفته أمرك، لعل في ذلك ما يفيد حين ترى صبيحًا أبلغ بزعانف الناس أن ...؟

شجرة (بعد صمت): لا بأس، أذهب في طلبه.

سهيل: سمعًا يا مولاتي (يخرج من الباب الأكبر).

(يدخل الأمير بيبرس من المنفذ الأيسر تائه الفكر مشردًا، كما يفعل من يمشون في نومهم، تكون عيناه صوب منفذ قصر السلطان، وهو غارق في تأمله، ويتقدّم نحوه وشجرة الدر ناظرة إليه باستغراب، فإذا حادثته تنبه كأنه أفاق فيلتفت إلى جهة الصوت، وتنادي شجرة الدر بصوت غير عال كي لا ينزعج).

شجرة: مرحبا بركن الدين.

بيبرس (يتتبه ويلتفت): من ذا يناديني؟

شجرة (على المبعد): أنا يا ركن الدين.

بيبرس (يتقدّم منها بسرعة ويحثو على ركبتيه): معذرة يا أختاه معذرة، لا يسُوك طروقى بلا استئذان، لقد والله أردت أن أخرج إلى الشاطئ من باب حلقة الأمراء ... فأخطأته وجئت إليك ... فإن كنت ...

شجرة (بصوت هادئ): يا مرحبا بك يا ركن الدين.

بيبرس: مثل هذا الصوت فزعت نفسي، إلى مثل هذا الحنان تطلع قلبي، إلى مثل هذه النظرة المشفقة ظمئت روحي، املكي عني أساي، املكي عني دمعة عيني (يضع وجهه بين راحتيه) إني أكاد أجن يا أختاه (تخنقه العبرات).

شجرة: روح عنك يا ركن الدين، أتيايس من رحمة الله؟

بيبرس: آه يا مولاتي! لقد بحثت عن صفة في كل مكان لكنني لم أوفق إلى خبر عنها، سألت البوادي والقفار، وفتشت الخرائب والديار، فلم تحر جواباً، ولقد طالما تمثلتها في سفري تستصرخ فأصرخ من أعماق قلبي: **لبيك! لبيك!** ثم أنتبه فلا يجيئني إلا الصدى حتى تغشاني غاشية جنون فاهيم على وجهي في البراري، وأخوض رقراق البردي المطمئن ثم أصرخ: **هأنذا، لبيك!** إلى أن أذعرت طير قلبي المسكين بصراخي، وترىيني الآن كالطفل لا يخفف حزني إلا دمعة أذرفها أو أم آوي إليها، إنني أكاد أجن، أجن، أواه.

شجرة: بيبرس، بيبرس، ترافق بنفسك، أكذا عزيمة الرجال؟ أهذا فتى النجع؟ أهذا فارس المنصورة؟ لقد والله حسبت أنني أجد لنفسي في صبرك عزاء، فإذا أنت أحوج مني إلى العزاء، لعلها ذهبت إلى دمياط وقد عزمت أن أرسل إلى الملكة رسالة، لماذا تزل بنفسك يا بيبرس؟

بيبرس: لقد ذهبت إلى دمياط.

شجرة (تؤخذ دهشة): وي!

بيبرس: وقابلت الملكة نفسها وسألتها عنها، ولكنها أقسمت أنها لا تدري من أمرها شيئاً منذ أرسلتها إليك.

شجرة: ما هذا الجنون يا بيبرس؟ أتدبر بنفسك إلى عرين الأسد الذي جندت أشباهه؟ كيف تخاطر بنفسك كل هذه المخاطر يا ركن الدين؟ إننا لا نزال في حاجة إليك.

بيبرس: كلا يا سيدتي، لم يعد لكم بي حاجة، لقد كتب الله لنا السلام فقهerna عدونا، وأسرنا ملوكهم وأمراءهم، وأخذنا كل جنودهم وماركبيهم وأدواتهم وعدتهم، وقضى الأمر، فإذا أنا متُّ بعد ذلك فليس في ذلك كبير بأس إلا أن تكون صافية في الأحياء.

شجرة: إنها كذلك يا ركن الدين، أترى الله يفجعنا فيها، كيف يضيع الله أجر المحسنين؟ ولكن قل لي كيف دخلت على الملكة؟

بيبرس: دخلت عليها كأني رسول من قبل بيبرس، وكنت أعددت معي رسالة، ولقد وجدتها مريضة هزيلة وفي عينها أثر البكاء والنحيب، لم تر أن يحادثني ناظر من خاصتها بل نهضت من فراشها تستنشق خيراً عن زوجها، وهي أول مرة نهضت

من الفراش بعد أن وضعت ولدها الذي سمته بالحزين،^٢ وقد قدمته إلى مستصرخة بك وبمواليك أن تردي إليها زوجها، فوعدتها أن تكون واسطة خير بينك وبينها.

شجرة: آه يا بيبرس، لقد أحسنت، أقسم لقد تمزق قلبي لحديثها، ولكن ترى طوران يرضي بذلك؟

بيبرس (يستفيق شيئاً فشيئاً): الرأي شوري يا سيدتي، وإن كانت الملكة قد رضيت أن تدفع فدية عن زوجها، فقد عدت إلى المنصورة على الفور واتفقت مع الأمراء على صيغة إطلاق سراح الملك، وأما أنت فلا أظنك تأبى إجابة سؤال الملكة، ولا أظن مولانا السلطان يأبى ذلك.

شجرة: إنني سأحادثه في الأمر حين يرجع إلى القصر، ولكن هل سالت الملك لويس عن صفيه؟

بيبرس: أجل، ولكنه لا يعرف من أمرها بعد يوم النجع شيئاً، ولا أخوه بواتيه، ولا أميره الذي أسره محسن مع الملك في بيت أبي عبد الله؛ لأنه كان أقرب أصدقاء دارتووا إليه، ولكن الملك وعدني أن يبحث عنها يوم يعود إلى دمياط، وهذا هو الأمل الباقي، والآن فلتأنن لي عصمة الدين أن أنصرف لعلي في آخر حق بلادي على.

شجرة: هذا أنت يا بيبرس، هذا ر肯 الدين، هذا عين أبطال مصر.

بيبرس: لقد عاد إلى الآن شيء من الطمأنينة بلقائك، كأنما كنت لذysi كعبة الرجاء التي تفرج فيها أزمات الأمور، على أنك إن رأيتني قد انتفضت كأورقاء، فإنما أضم الآن تحت جناحي جرحاً راش سهمه القدر، ثم أخفاه في طيات الخوافي، السلام على مولاتي ورحمة الله.

شجرة: في ذمة الله يا بيبرس (يخرج بيبرس من المنفذ الأيسر، وتهم شجرة الدر بالخروج من المنفذ الأيمن ثم تسترسل في كلامها وهي خارجة) يا الله! كيف يقلم الوجد مخلب الأسد، اللهم لا تفرق بينهما يا من يجزي المحسنين بما عملوا.

(يدخل السلطان طوران شاه من الباب الكبير لابساً جبة سوداء مزركشة بالذهب على قتبها وعاتقها، ولها أزرار كبيرة دائرة حول السجف، وهي موشحة بفرو السنجانب، وعلى رأسه عمامة بيضاء مفرغة ذات أقماع مخيطة

^٢ عن جوانفيل.

بأعلاها تقليدياً لعمامة صلاح الدين، وتحت جبته قفطان من الحرير الأخضر الإسكندرى الموجخ عليه منطقة من الذهب ... وظاهر طوران شاه يدل على الرعونة، وأنه سكير، فهو منتفخ الأوداج، جاحظ العينين قليلاً، إذا دخل وقف يتأمل ثم سار إلى حيث كانت شجرة الدر، ثم وقف وأخذ يفك، ثم عاد إلى السير ذهاباً وجيئة أخرى).

طوران: تخفيها عنى وتهزا بي! تؤثر عبدياً من عبدي علىّ، علىّ أنا، سلطان مصر والشام وابن الملوك العظام، أم أنها تجهل قدرى؟

شجرة (تدخل): من هذه التي تجهل قدرك يا بني؟

طوران (على حدة): ويل لها! أكانت تتسمى؟ (وبصوت مسموع) هي أنت يا امرأة أبي الكريم.

شجرة (تشدده): ما عوّدتنى مثل هذا النداء يا بني، أم استكثرت علىّ لقب الأمومة؟

طوران: ليس للإنسان في دنياه إلا أم واحدة، وقد أفقدتها منذ زمن طويل.

شجرة: فمن ذكرك اليوم بها؟ ما أشد وفاء الأبناء!

طوران: ويحك، ماذا تعنين؟

شجرة: أسباباً واعتداء.

طوران: خبريني أين صفيه؟

شجرة: لقد طالما خبرتك أني لا أعلم عنها شيئاً (يقف طوران أثناء ذلك ينظر إليها مهتاجاً يضع يده مرة على خاصرته، وأخرى على صدره) منذ موقعة المنصورة، وإنني لا أدعوا الله في صلاتي إلا أن يوفق من أقمتهم للبحث عنها للعثور عليها ويجمعني بها، فما بالك اليوم تسألي عنها خبراً؟

طوران: إنك تخفيتها عنى.

شجرة: أخفيها عنك؟ أتراني كنت أخاتل الله في صلاتي؟

طوران: إنما كنت تخاتليني أنا (يتمشى).

شجرة: ماعهدي بك كذلك يا بني، لا تخفيها عنك إلا إحدى امرأتين: زوجة لك، أو عاشقة تغار عليك، وما أنا كذلك وما ينبعني لي، أو ناقمة تريد التأثير منك، وليس بياني وبينك عداء.

طوران: بل إنما أنت الثانية أيتها المرأة.

شجرة: وي! لماذا؟ (هنا يبدو سهيل على الصدفة، وإن يسمع هذا اللجاج يتراجع ولكنه لا يغيّر).

طوران: لا أدرى (يتمشى ثم يقف ينظر إليها).

شجرة: كيف أريد بك سوءاً يا بني وأنا التي وليتك الملك بعد أبيك بلا وصاية؟

طوران: إذن فقد خنت أبي إذ زورت خاتمه على الناس بولالية العهد لي.

شجرة: قد أكون خنته يا بني، ولكنني لم أخنك أنت ولا خنت ربى.

طوران: من يخون أبي يخوتنى (يتمشى ثم يقف ينظر إليها).

شجرة: إذن فمعذرة إليك، ولكنني إنما فعلت ذلك حسن ظن بالله، وأمانة لك.

طوران: ألم تتعدي بها خادمك بيبرس.

شجرة: بلى (هنا يبدو سهيل ثم يتراجع).

طوران: انْتَشِرِينَهُ عَلَيْ؟

شجرة: كيف أوثر خادم السلطان على السلطان نفسه؟ ولكن سبق الوعد بها من أبيك لأميره وهو في حلب قبل أن يجيء إلى مصر بعام، وجددت له الوعد قبل أن تجيء أنت بأشهر، ولقد هممت أن أبئّ له بوعد أبيك ووعدي وأجزيه عن المعروف فيما فعل فأبأته عليه همته العالية إلا أن يرجئ الأمر حتى تنتهي الحرب، وهذا نحن أولاء قد فقدناها ولا ندرى أفي الأموات هي أم في الأحياء؟ فلماذا تحادثني اليوم في شأنها؟ بل لعمري لئن كانت في يديك ثم طلبها بيبرس إليك لكان حقاً عليك أن تجود بها عليه اعترافاً بجميله على بيتك، إنه هو الذي حمى بيتبني أيوب ذلة الأسر والهوان.

طوران: ويحك يا شقيقة (يبدو سهيل ثم يتراجع).

شجرة: آه يا طوران، لقد كان بيبرس وصحبه أبناء ملوك مثلك، اتق الله يا طوران

... ألا تخشى أن يصيبك ما أصابهم فتقتل أو تباع كما بيعوا لأبيك؟ ثم لا تجد سيداً كسيدهم، لقد كان أوشك أن يصيبكم من الفرنجة ما أصابهم من المغول لولا همة بيبرس وصحبه.

طوران: فَلَّيْتِ يا فاجرة (يقبض على ذراعها) أبمثّل هذا تجبيين؟ (هنا يبدو ويقف ينظر ثم لا يتكلّم).

شجرة: دعني أيها السلطان وإلا ندمت.

طوران (يتركها): أين أموال أبي؟

شجرة: إنك تعلم أني أودعتها بيت مال المسلمين.

طوران: لم أجد في بيت المال إلا قليلاً، خبريني أين المال؟

شجرة: إن كنت لا تجد إلا قليلاً فقد أنفق على الجندي والعشور لم تجب حتى يومنا هذا لاشتغال الناس بالحروب، وليس عندي من مال أبيك إلا قليلاً لا أزال أنفق منه في طعامك وشرابك، فإن شئت أن تتولاه أفلتني مشكورةً ثم أذنت لي في مغادرة قصرك مأجوراً، لم يعد لي في جوارك مقام.

طوران: لن يكون ذلك حتى تنزلي عن حقائب الدر الأسود والياقوت التي أهداها إليك أبي.

شجرة: إن كان أبوك قد أهداها إليّ فهي ملكي بشرع الله، ليس لأحد عليها من سبيل، على أني قد رصعت بها كسوة المحمل الذي نذرت أن أجعله هودجا للأمير الذي يسافر بالحجيج إلى مكة المكرمة وقبر رسول الله هذا العام. ووهبت ما بقى منها لقصورة النبي عليه السلام اغتباطاً بنجاة مصر وخفوق راية الإسلام، وهي الآن في قلعة الجبل فإن شئت إلا أن تأخذ مال الله فأنت وشأنك.

طوران: أهي في مقصورتك؟

شجرة: كلا بل في مقصورة أبيك، والآن إذ جئت بي إلى فارسكور فأذن لي أن أرحل عن دهليزك هذا لا آخذ معي إلا ثيابي التي جئت بها، ولن أعدم قوت يومي بما تكسب يدي.

طوران: أنترك تهربين إلى ندمان خلوتك؟ اذهب إلى غرفتك ولا تبرحها إلا بإذني.

سهيل (يدخل): الأمراء بالباب يلتمسون المثلول بين يديك يا مولاي.

طوران (يلتفت مذعوراً): ويحك! من الذي أذن لك بالدخول؟

سهيل: تلك عادتي يا مولاي.

شجرة: هذا كاتب يدي أيها السلطان.

طوران (لسهيل): قبّح الله صورتك، اذهب، قف، على بابن الطوري.

سهييل: لم يجيء معهم من المنصورة يا مولاي.

طوران: وي! لماذا تأخر؟

سهييل:رأى الأمير محسن أن يستبقيه بالمنصورة في غيته.

طوران (يصط أنيابه): عليّ بهم، (وتحاول شجرة الدر أن تذهب من الباب الأيسر

فيستوقفها) قفي، أين تذهبين؟

شجرة: إلى رسول الله أشكوك إليه.

طوران: إلى حجرتك أيتها المرأة، لا يدخل عليك أحد إلا بأذني، ولا يكن لك كاتب

ولا بريد، أفهمت؟

شجرة (تنظر إليه منتظرة ساكنة ثم تتكلم): سأذهب كما تشاء، وسأكون عند

أمرك، ولكن أعلم أيها السلطان أنك فقدت نصيرك في هذه الحياة.

(تخرج من حيث جاءت).

طوران: أتراهم أوجسوا المخبوء؟ ما لابن الطوري قد خالف أمري؟ أجل، إنهم زعماء

الجند والناس في مصر (هنا يبدو سهيل) عباد القوة، سأريهم قوتى فلا يستعجلون.

سهيل: حضر الأمراء يا مولاي.

(يدخل الأمراء يتقدمهم محسن، ويتلوه أقطاى يتبعهما بيبرس، وبعض أمراء

آخر ويظل سهيل عند الباب).

محسن: سلام على الملك العظيم طوران شاه سلطان مصر والشام وحامى حمى

الإسلام.

طوران: على أبطال مصر السلام (يجلس على المقدى العالى وهو غصب) ما وراءكم؟

محسن: ما وراءنا إلا الخير أيها السلطان، ولكننا جئنا نستفتىك في أمر من أمرنا

ونستتير برأيك الثاقب.

طوران: إن كان أمراً من أمور الدولة فليس لأحد منكم أن يستفتني وإنما لي الرأي

وما عليكم إلا البلاغ، فما هو هذا الأمر؟

محسن (يلتفت دهشاً): أمر ريدافرانس أسرنا ...

طوران: ما خطبه؟

محسن: لقد بقي من جنده في دمياط عديد اعتصموا وراء أسوارها المنيعة واستعدوا لحيوشنا استعداداً كبيراً.

طوران: وهل يعز عليكم فتحها؟

محسن: لن تعزّ المعاقل على فارس مصرى في يمينه حسام وفي قلبه إيمان، وإنما نخشى أن يبطئ الفتح علينا، وقد زرنا دار ابن لقمان بالأمس حيث أودعنا ملك فرنسا وأخاه وباروناته أجمعين، فعرض الملك علينا أن يخلي دمياط لنا، ويدفع لنا عن نفسه ومن بقى من قومه دية ونطلق سراحه وسراحهم، وتنزل الألوف من رءوس القتلى من قومه الذين قلنا بجماعهم أسوار المنصورة، ونحفظ له أقواته التي بد미اط حتى يرسل في طلبها،^٣ قد رأينا الأمر أجدى علينا وأحفظ لرجالنا فجئنا نطلب إلى سدتك الإذن بامضائه.

طوران: لقد كان يجدر بكم أن تتربيوا حتى تبلغوا الأمر إلي، إني أنا سلطان مصر وحدي لا أنت، وسواء كان فيما عرض نفع أو غير نفع فإني لا آذن بامضائه.

أقطاي: يشاء مولاي أن يقول الساعة هذا المقال بعد أن اتفقنا معه بالنيابة عن البحرية أجمعين على ما يجب أن يكون لنا من الأمر في تدبير الشئون، وقد كنت عالئتنا بأئنك لا تأبى على الملك أن يفتدي نفسه، فلما عرض علينا الديمة تشاورنا في أمرها وادتضناها فيما بيننا، ثم حئنا تلقى، عليك حملتها لتعلم بما بح لك العلم به.

طوران: ما كان من حكم أن تتشاوروا في أمر من أمور دولتي ولو سبق مني إقراره حتى أنظر فيه، فإن شئتم أن تسلبوني حقّي الذي وهبه الله لي فإنما أنتم باغون، وإن شئتم أن تكونوا مخلصين لي عاملين على مكانتكم مني لم تزيدوا على إبلاغي الأمر ولـي فيه شأنـي، قبلـت أمـ رفـضـتـ.

بيبرس: أيها السلطان إنما نخرج بالأمر عن حد المباحثة، وتقرير شرائط الاتفاق بيننا وبين عدو قديم، لم تكن لك يد في أمره ولا هزيمته، ولقد كان في حلٌّ من إمضائه، عنك عملاً بما اتفقنا عليه من قبل، ولكننا أردنا أن نبلغك الأمر رعياً لكرامة ذي السلطان، ولنشرهد الله أننا وفينا لبيتك الكريم ولبلادنا ولأبيك عليه الرحمة والرضوان.

٣ عن جوانفیل.

الجميع: رحم الله الملك الصالح.

بىبرس: فـإـمـاـ أـنـاـ مـخـلـصـونـ لـكـ فـهـذـاـ مـاـ لـاـ شـكـ فـيـهـ؛ـ إـذـ إـنـكـ سـلـطـانـ مـصـرـ الـذـيـ أـقـمـاـهـ بـاـخـتـيـارـنـاـ لـجـمـعـ أـمـرـنـاـ،ـ وـلـعـنـةـ اللهـ عـلـىـ الـخـائـنـينـ.

الجميع: لعنة الله على الخائنين.

بىبرس: وـإـمـاـ أـنـاـ نـجـهـلـ مـكـانـاـ مـنـكـ فـمـغـالـطـةـ سـاقـكـ إـلـيـهـ مـاـ وـقـرـ فـيـ نـفـسـكـ مـنـ أـنـاـ،ـ نـحـنـ مـمـالـيـكـ أـبـيـكـ الـجـلـيلـ،ـ نـطـمـعـ فـيـ تـرـاثـكـ فـلـمـ تـزـلـ تـغـضـبـ مـنـاـ وـتـصـفـرـ مـنـ شـائـنـاـ.

الجميع: رحم الله الملك الصالح.

بىبرس: لـقـدـ كـانـ لـنـاـ أـنـ نـجـلـسـ فـيـ حـضـرـةـ أـبـيـكـ جـلـسـةـ الـلـوـلـدـ الـبـارـ مـنـ أـبـيـهـ،ـ فـأـمـاـ أـنـتـ فـأـبـقـيـتـنـاـ عـلـىـ الـأـقـدـامـ فـيـ هـذـهـ الدـارـ الـتـيـ يـجـلـسـ فـيـهـاـ الـغـلـمـانـ وـالـنـدـامـيـ،ـ وـفـيـ مـثـلـهـاـ قـضـيـ أـمـرـنـاـ بـتـوـلـيـتـكـ سـلـطـانـاـ عـلـيـنـاـ بـلـاـ عـهـدـ وـلـاـ كـتـابـ (ـيـضـطـرـبـ طـورـانـ).

طوران: اـجـلـسـواـ بـالـهـ أـيـهـ الـأـمـرـاءـ وـلـاـ تـذـكـرـواـ إـلـاـ الـخـيـرـ،ـ إـنـيـ نـسـيـتـ (ـيـجـلـسـ مـحـسـنـ وـأـقـطـاـيـ وـبـعـضـ الـأـمـرـاءـ).

بىبرس: بـلـ تـنـاسـيـتـ لـتـرـرـيـ بـنـاـ وـتـحـطـ مـنـ كـرـامـتـنـاـ وـنـحـنـ أـمـرـاءـ الـدـوـلـةـ وـكـبـارـ جـنـدـهـاـ وـأـسـاطـيـنـ دـوـلـةـ إـلـسـلـامـ،ـ وـكـانـ فـرـضـاـ عـلـيـكـ أـلـاـ تـفـرـطـ فـيـ كـرـامـةـ هـذـهـ المـنـزـلـةـ حـتـىـ لـاـ يـرـاـهـاـ خـلـفـكـ مـنـ السـلـاطـيـنـ هـنـةـ بـيـنـ الـهـنـاتـ.

طوران: مـعـاذـ اللهـ يـاـ بـىـبـرـسـ!ـ مـعـاذـ اللهـ!

بىبرس: لـمـ تـزـلـ مـنـذـ جـئـنـاـ بـكـ مـنـ كـيـفـاـ تـسـتـرـيـبـ كـلـ أـمـرـ مـنـ أـمـرـنـاـ،ـ لـمـاـذاـ؟ـ أـلـأـنـاـ حـفـظـنـاـ لـكـ الـمـلـكـ أـنـ يـدـعـيـهـ أـرـبـابـهـ مـنـ أـعـمـامـكـ الـذـيـنـ غـلـبـهـمـ أـبـوـكـ عـلـيـهـ؟ـ وـمـاـ بـرـحـتـ تـسـتـصـفـرـ كـلـ عـلـمـ مـنـ أـعـمـالـنـاـ،ـ لـمـاـذاـ؟ـ أـلـأـنـاـ اـسـتـطـعـنـاـ أـنـ نـبـرـهـنـ لـلـعـالـمـ أـجـمـعـ أـنـ فـيـ مـصـرـ رـجـالـاـ،ـ وـأـنـ اـمـرـأـ مـصـرـيـةـ خـيـرـ مـنـ رـجـالـ كـثـيـرـيـنـ؟ـ

الجميع: بـورـكـتـ،ـ بـورـكـتـ فـضـلـ النـسـاءـ.

طوران: وـيـ!ـ وـيـ!ـ كـذـلـكـ تـخـاطـبـ مـوـلـاـكـ يـاـ رـكـنـ الدـيـنـ؟ـ

بىبرس: لـقـدـ كـانـ لـلـنـاسـ أـنـ يـقـوـمـواـ عـمـرـ بـحـدـ السـيـفـ،ـ فـبـأـيـ حـدـ نـقـوـمـكـ أـنـتـ؟ـ

طوران: لـوـ تـرـكـتـمـونـيـ وـشـأـنـيـ لـصـنـعـتـ مـاـ يـسـتـوـجـبـهـ الـدـيـنـ.

بىبرس: اـسـتـمـعـ لـيـ يـاـ طـورـانـ،ـ إـذـ شـئـتـ أـنـ تـعـيـشـ بـيـنـاـ سـلـطـانـاـ عـلـيـنـاـ فـلـيـسـ لـكـ إـلـاـ الشـورـىـ وـالـرـأـيـ لـلـجـمـاعـةـ.

طوران: لقد عولت على ذلك منذ حين.

بىبرس: هكذا علمنا فما ردد اليوم عنه؟ وما دعاك إلى أن تبيتنا وتتآمر علينا وتعمل على قتلنا؟

طوران (دهشاً مذعوراً): أنا أبىتكم وأعمل على قتلكم!

بىبرس: كفى أيها السلطان، إنك تزعم أن مصر اليوم كعهدها بالأمس؛ إذ كان أهلاً أنعاماً يساقون، كلا يا طوران! لقد عشت في ديار بكر بعيداً عن هذه الدنيا فلم تدر أنهم اليوم أمة أخرى، لقد عرفوا اليوم أن لهم في هذه الحياة الدنيا نصيباً فوق نصيبكم منها؛ لأنكم بها وهي ليست بكم، إنهم الأعلون وأنتم الأدنون، بيد أنهم رجال صحي، فصن فؤادك عن التفكير في قتلنا، ولا تضن نفسك بالاحتياط، فإني إن أمت غيلة أو يمت محسن صبراً، أو أقطاي، أو قطز أو بلبان أو تنكر، قام غيرهم يطالبونك بدمائهم، وإذا أنا فصلت الآن عنقك بسيفي هذا جزاء جنایتك علينا، ولغ الناس في دمك وكان ولي عهدك أول المغتبطين، انظر: هذا أميرك ابن الطوري الذي جئت به من كيما، والذي عليه تعتمد وبه تستعين قد عالننا بأمرك، فارشد أيها السلطان ولا تكن من الجاهلين.

طوران: معدنة يا بىبرس، معدنة أيها الأباء، لقد خبروني أنكم أردتم بي سوءاً فصدقت وال الكريم يُخدع، على أن لكل امرئ من دهره ما تعود، وقد اعتدت في كيما ما لم أجده هنا، فكبير الأمر على نفسي، ووجدت للوشية سبيلاً إلى قلبي، أما وأنتم لا يرضيكم إلا هذه الخطة على أن نعيش عليها بعد اليوم إخواناً في الله، فعهد الله بيني وبينكم عليها، قسماً تلزموني عليه إن حنت لعنة المنتقم الجبار.

بىبرس: شكرًا للسلطان، ولكن لا نرضى بهذا العهد حتى تسترضي مولاتنا شجرة الدر على ما لقيت منك من صنوف الإهانة قبل مقدمنا.

طوران: اتقوا الله أيها الأباء! ماذا جرى؟ إن هذا افتراء.

بىبرس: إنه لصدق أيها السلطان (لسهيل) سهيل.

سهيل: مولاي.

بىبرس: استمتح مولاتنا في التجلي علينا.

طوران: لن يكون هذا، كيف تبدو امرأة السلطان عليكم؟

محسن: هون عليك يا مولاي إننا عيدها المخلصون، وما هذه بأول مرة نستأذنها، فقد كان لنا ذلك أيام أبيك عليه الرحمة والرضوان.

بيبرس: والآن فاعلم أيها السلطان أننا جئنا بملك الفرنسيس من المنصورة نرده، واتفقنا معه أن تكون الدية خمس مئة ألف دينار نصفها برهن أخيه بواتيه، حتى يصل إلى دمياط والنصف الآخر بوعده منه، فاقبليه وإذا دخل عليك فأذن له بالجلوس، هذا أليق بكرامتنا، وإذا ذكرت الدية فانقص منها، نحن قوم لا يهمنا إلا الثناء، ثم ودعه وداع الملوك (يلتفت) أقطاكي، مر للملك بالقدوم علينا (ينهض أقطاكي ويقف بباب الردهة فوق المشى ويشير بيده إشارة من يستدعي).

أقطاكي: علينا بري ديفرانس.

صبيح (من الخارج): سمعاً يا مولاي. (يعود أقطاكي)، (ويأتي سهيل من القصر يتقدم شجرة الدر).

سهيل (معلنا): مولاتي شجرة الدر، (يقف الجميع ما عدا السلطان).

شجرة: سلام على أبطال المنصورة.

محسن: وعلى حامية مصر السلام، (تجلس على الكرسي الذي إلى يمين عرش الملك).

شجرة: لم أظفر بعد فقد مولاي الملك الصالح بشيء من طمأنينة النفس إلا اليوم أيها الأمراء الكرام؛ إذ اجتمعتم بولدي السلطان العظيم طوران شاه (هنا يتنفس السلطان تنفس الفرح) بعد طول نواه، وحميتم مصر أذى عدوها ثم استقتم زعيهم في رحابه أسيئاً، أفلأ نشكر الله؟

أقطاكي: ألف حمد الله على نعمته يا مولاتي وألف شكر لك، لقد كان النصر كله على بيديك، فأنت أنت التي دبرت أمر الدولة في غيبته حتى لا يشغل الأمراء إلا بمدافعة القوم، كما صنعت في غيبة أبيه ومرضه، ولعمري لئن كان لهم في نصرة الحق ثواب عند الله، لثوابك أرجح وأعظم (للسلطان)، أليس كذلك يا مولاي؟

طوران (سكوت): بلى.

بيبرس: لو أخلصت النية أيها السلطان لوقفت إجلالاً من دعتك ولدتها بعد أن أساءت إليها، ولحرفت لها إقصارها عن الشكوى، واعتذررت إليها مما فرط منك.

طوران (ينهض): معدنة يا أماه.

شجرة: عفا الله عنك يا ولدي، إن هي إلا مغاضبة مما يحدث بين الوالدة وابنها،
شكرا لكم أيها الأمهات، ألهموا دعوتي؟

محسن: أردنا أن نطمئن عليك يا سيدتي ونخبرك أنا لا نرضى أن يبدل لك حال
بعد مولانا، وأنا نفديك من كل شر بنفوسنا.

شجرة: شكرنا لكم، إني بخير ما دمت، انظروا لأنفسكم (تنهض)، والآن أيها الأمهات
إذ جئتم بملك الغرنسيس فعسى أن ينصرف شاكرا، لا تجعلوا الحرب مذهبة للمروءة،
فإنما قوم لا نبتفى إلا وجه الله، ولقد أعددت له ولقومه خلعا يأمر بها ولدي السلطان.

أقطاى: وأين هي الآن يا مولاتي؟

شجرة: في حراسة بعض المماليك.

بيبرس: أحسنت يا عصمة الدين.

شجرة: والآن أيها الأمهات إذ انتهت الحرب بعد العداء، وأنقذ الله مصر من الذلة
والهوان، وأراني بترت بقسمي لله ووعدي لمن قضي، فاشهدوا أيها الأمهات ... اشهدوا أني
وفيت.

الجميع: نشهد على ذلك.

شجرة: ولتشهد مصر أيها الأمهات أنكم حماتها، لن تضام ما دام رجالها على
ما أنتم عليه من الإخلاص لله في العمل، وابتغاء وجهه في السر والعلانية، لقد كان في
تضاركم وتازركم آية: إن الدولة برجالها، طلح السلطان أم صلح، ولئن كنتم على غير
ما عرفت لكوناليوم أتلميسكم فلا أجدكم إلا بين جدث أو مأسرة، فإذا عيني حاسرة،
وإذا شفتي كاسفة، أما الآن فالعين من بشرها دامعة، وال السن من فرحيها مشرقة، سلام
عليكم ورحمة الله (تخرج).

الجميع: وعلى عصمة الدين السلام (يردون ما عدا السلطان).

بيبرس (للسلطان): لماذا لم ترد السلام أيها السلطان.

طوران: وي! ما هذه الذلة! أما كفاكما ما مضى! إني لا أطيق هذا (ينهض) أكذا
تُدلل الملوك؟ ويحكم! اذهبوا عنى (يتحرك عن العرش) لن أنتظر حتى يأتي من بعثتم
في طلبه (يهم بالذهاب).

بيبرس: سيفكم يا رجال (يجردون السيوف ويلزمون الأبواب) إنك لا تملك الآن شيئاً، بقاياك وذهابك ملك للأمة ووقف على منفعتها، فإذا أنت لم تقف حتى تلاقي من لا بد من ملاقاته باسمها، فكأنما نزلت عن العرش، ولن تعدم مصر من رجالها ملكاً.

طوران: لا أريد سلطنتكم، دعوني أرجع إلى كيفاٌ.

صبيح (يطل): جاء ربي دوفرانس.

بيبرس: خذوا هذا الأمير (مشيرا إلى السلطان) إلى غرفة الحلقة حتى حين ...

(سهيل): سهيل!

سهيل: مولاي.

بيبرس: اصعد العرش (يشير بيده إلى العرش).

طوران (ينظر إلى العرش وإلى الجميع): سهيل!

بيبرس (لطوران): اصعد عرشك ولا تقم، وأرني جلالبني أيوب، لقد كانوا قوماً كابرين (يصعد طوران العرش).

(يدخل ملك فرنسا وعدة من البارونات والملك في ملابس غير ملابسه الأولى

لأنها أخذت منه وأرسلت هدايا إلى جند الشام^٤ يتبعه صبيح ومسعود).

الملك: السلام على الملك المعظم طوران شاه، سلطان مصر والشام وحامى حمى الإسلام.

طوران (بتلطف): وعليك السلام يا ملك فرنسا المعظم.

الملك (يجلس على الكرسي الذي كانت عليه شجرة الدر ويظل الآخرون واقفين): شكرًا للسلطان.

طوران: إنك آذنتنا بالفرق فلا تذكر ما أسانا به إليك، إنك إن تغلب في بلادنا، ففرانسا باقية، أما نحن فإن نقهر هنا ضاعت بلادنا فإن نكن قد أرهقناك في أسرك فالعذر واضح.

^٤ كتب التاريخ.

الملك: أيها الملك العظيم الشأن هنيئا لك أمراًوك، لو كان في الفرنجة مثلكم لعلموا أوروبا مكارم الأخلاق وكرام الشيم، والملك منا أيها السلطان إن كان سعيداً وفقه الله إلى وزراء راشدين وأمراء باسلين، وإذا كان لك من هؤلاء عديد كالدر في لبة الحسناء، فهنيئا لك اسمك الخالد وسلطنك العظيمة، وإذا وجب على أن أذكر للمحسن إحسانه فإني أخص به الأمير بيبرس البندقداري، والأمير العظيم محسن الذي أسرني بسيفه وإحسانه معاً، والفارس المعلم أقطاي، وهذا الكاتب الأمين (مشيراً إلى سهيل) وذلك الحارس البار الكريم (مشيراً إلى صبيح، وصبيح يسلم بكتاب يديه)^٠ وإخوانهم أعلام البحريه الذين حموا رقابنا أن يضربها الواجبون علينا.

الجميع: شكرًا للملك.

الملك: لقد أروني إني خدعت فيما بلغت عن القوم، ولو بصرني ربى بأمركم من قبل ووفقني إلى سر دينكم ما أقيت بقومي في مقاتلتكم، ولكنني زعمت إني أزدلف إلى الله، ولو لا حسن نيتى لكنت اليوم في الهاكلين.

طوران: نحمد الله على ذلك، لا نريد فوق ذلك شيئاً إلا أن تدعنا أيها الملك ألا تغامر بقومك في قتالنا بعد اليوم.

الملك: لك عهد مني أيها السلطان.

طوران: شكرًا للملك، والآن ما قدر الديمة؟

الملك: ألف ألف بيزانطي أيها السلطان، هكذا اتفقنا.

طوران: إنك كبير النفس أيها الملك، كيف رضيت بهذا القدر؟

الملك: رضيت به فداء لقومي.

طوران: إذن فإني أنزل لك عن مئتي ألف منها إعجاباً بعلو نفسك أيها الملك العظيم.

الملك: شكرًا للسلطان.

طوران: ألا ينزل لي الملك عن حصنِي الإسبطاريين والهيكليين بالشام؟

^٠ كان صبيح حارس سجن لويس، وذكره ابن مطروح في قصidته.

الملك: لا أملك ذلك أيتها السلطان، إني أملك دمياط وقد نزلت لك عنها.

طوران: وكيف تدفعون الديمة؟

الملك: نصفها يوم وصولي إلى دمياط وسأترك أخي هذا (مشيراً إلى بواته) رهينة عندكم حتى يأتينكم المال.

طوران: وكيف يدفع النصف الباقي؟

الملك: يوم أصل إلى عكا، إني لا أملك الآن شيئاً، ولا تملك الملكة إلا قدر ذلك النصف.

طوران: ولكننا لا نرضى أن يكون بيننا وبينكم بعد رحيلكم إلا المودة التي نرجوها، وفي انتظار المال شيء من الريبة وقد تذكرون لنا أمراً لم يكن في الحسبان.

الملك: ألا يكفي السلطان وعدى؟

طوران: أعتذر أيها الملك.

الملك: إذن فليضمني الأمير بيبرس.

بيبرس (يتقدم): على ضمان الملك يا مولاي، إن للأبطال في قلوب الرجال ذمة

نحن قوم لا يملك العطف منا
قلبنا في قتال من عادانا
وإذا ما قضى الحسام من الها
م مناه بكى الحسام حنانا

الملك: شكرًا لبيبرس.

طوران (حائراً): حسبي منه القسم صوناً لضمانك يا بيبرس.

الملك: إذن فأقسم بالله أن أفي لكم بنصف الدين الباقي إذا أنتم أطلقتم سراحى وسراح قومي الأساري، ثم حفظتم لي أقواتي التي في دمياط حتى آخذها، ولم تقتلوا من بها من المرضى.^٦

طوران: لا يكون القسم كذلك أيها الملك.

^٦ كتب التاريخ.

الملك: فكيف يكون إذن؟

طوران: علينا بهبة الله الطيب، إنه كان في ملة القوم فهو أدرى باليمن الغموض.
الملك: اعفني من رؤية هذا الرجل أيها السلطان، قل ما تشاء وعلي تلاؤته، إني أكره
رؤيه المرتد ... المعدنة.

طوران: إنه كان يتربّد على الملك من قبلي معالجاً في دار ابن لقمان، فكيف أطقت
رؤيه يومئذ؟

الملك: لم أره وحقك منذ ليلة النجع.

بيبرس: ليلة النجع !!

طوران: ولكنك كان يخبرني عنك شيئاً كثيراً.

الملك: لقد كان كاذباً.

طوران: يالعجب! (مفكراً) قبلت بقسمك أيها الملك، والآن إذ قضي الأمر فعلّي
بالخلع يا سهيل، (ينهض لويس ويسير سهيل إلى الباب الأيمن فيتناول الخلع من مملوك
ويقدمها، والخلع موضوعة في ربطة مغطاة بالمخمل المطرز بالذهب) عاطها لصبيح
(يعطيها لصبيح) تقبل هذه الملابس لسفرتك أيها الملك، إن برد البحر شديد، وسأبعث
إليك بفراش لشوانيك التي سنردها إليك.

الملك: شكرًا للسلطان، لقد قلّدني منة لا أنساها أبداً، الوداع.

طوران (ينهض نصف نهوض): في سلامه الله.

(يخرج ملك فرنسا وصبيح وسهيل).

محسن: كذا تكون شيم الملوك يا مولاي.

أقطاي: لقد أصبح النصر بما فعلت نصرين أيها السلطان.

طوران (ينزل عن العرش): شكرًا لكم أيها الأمراء، والآن إذ انتهى أمر الملك فلعلكم
ناسون ما قد مضى ذاكرون أني عند ظنكم.

بيبرس: أطال الله بقاء مولانا الملك المعظم طوران شاه، سلطان مصر والشام
وحامي حمى الإسلام.

طوران: سلام عليكم.

الجميع: وعلى مولانا السلام.

(يخرج السلطان من الباب الأيمن ويهم بيبرس بالخروج من الباب الأيسر).

محسن: أين تذهب يا بيبرس؟

بيبرس: أبحث عن هبة الله، لقد كان يتمشى مع السلطان.

محسن: ولماذا؟ أتستريبه؟

بيبرس: أجل.

محسن: ولكنك عفوت عن طوران وقلنا أنصف، أفلأ يشمل العفو صحبه؟

بيبرس: لا أريده لهذا اليوم. إني سمعت الملك لويس يذكر أنه رأه ليلة نجع

فارسکور، ماذا كان يصنع هناك؟ (يعود أقطاى من المشى قائلاً).

أقطاى: من؟

محسن: هبة الله.

أقطاى: وي! بيبرس! أسمعت ما قال الملك؟

بيبرس: أجل.

أقطاى: وقد سمعت بعض الأسرى يقولون: إنه أخذ من برثار صاحب النجع أوراقاً ذات شأن ثمّا لحياته، فلما أخذها أغري به السيف فقتله فيمن قتل منذ ليلتين.

بيبرس: سأبعث في طلبه كل رجالي، هلم.

الجميع: حسناً (يخرجون من الباب الأيسر ويدخل هبة الله من الباب الأوسط ينظر في المكان).

هبة: أين السلطان يا ترى؟ أين النساء؟ ترى دس لهم السم في الطعام؟ الظاهر كذلك، مرحى إذن فلا حاجة إلى الرحيل بها عن هذه الديار، إني سأقبحها له الليلة، وهو كالطفل سريع التصديق، فإن أبى سرت بها في ركاب الملك إلى عكا، ولن أعدم عفوه عنى، كيف أبلغ رسالة ابن يغمور؟ (يخرجها من جيبه) ولكن ما فائدة جيش الشام وقد قضي الأمر؟ (يدخل أقطاى فلا يراه هبة الله، وإن يدنو منه يتتبه ويحاول وضع الرسالة في جيبه، ويلتفت أقطاى إلى الوراء مشيراً بيده فيلتفت هبة الله) ألا يزالون في الأحياء! (بصوت عال لأقطاى) سلام أيها الفارس.

أقطاي: ما تلك بيمينك؟

هبة: لا شيء (يضعها في جيده) رسالة جاءتني اليوم.

أقطاي: من؟

هبة: من ...

أقطاي: من؟ أجب.

هبة: من ... من صديق لي (هنا يدخل بيبرس).

بيبرس (يتقدم من هبة الله): أكنت بنجع فارسكور ليلة جئت بالأميرة صفية؟

هبة (صارخا): أنا؟

بيبرس: أي أوراق أعطاكمها برنار؟

هبة (متجاهلاً): من برنار هذا؟

بيبرس: فتشه يا أقطاي، أخرج من جيده ما تجده من الأوراق.

هبة: إنها رسالة خاصة بي أيها الأمير، كيف تطلع على أسراري؟

أقطاي: هاتها.

هبة: إليكها (يخرج من جيده ورقة ويمزقها ثم يرميها على الأرض).

بيبرس: آه يا شقي.

أقطاي: ويل لك يا لعين (يميل فيجمع قطع الأوراق ويضعها جنباً إلى جنب على أحد الكراسي ويحاول أن يقرأها، ويقف بيبرس ينظر إليه متفرساً مدة ثم يصرخ في وجهه قائلاً).

بيبرس (صارخا): ويحك يا لعين، أين صفية؟

هبة (يصفر وجهه): صفية! من ذا يدريني أين هي؟

بيبرس: قل لي أين هي؟ إني أشم ريحها في ردنك، وأرى شبحها في عينك، قل لي. وإلا قتلتك، إن قلبي لا يخدعني.

هبة: ما عهدي بك ظالماً يا بيبرس، أتأخذ البريء بالشبهات.

بيبرس: يا رباه.

أقطاي (يصرخ فرحاً): بيبرس، تعال، أقرأ (يذهب بيبرس إليه).

هبة: دعوني أذهب، إنكم قوم لا تطاقون.

ببرس: مكانك!

أقطاي (ينهض): ويحك، قف (يهجم عليه) أين ابنتي عائشة؟ أين التي سميتها مريم (يأخذ بخناقه).

هبة: وي! لقد أخطأت الرسالة! قضي الأمر.

أقطاي: أين هي؟ قل لي أين هي؟

هبة: إنك أحرقت قلبي على أمها وهي جارية، ولن تراها.

ببرس (ينهض): ويحك! أين صفيه؟ لقد كانت معها.

أقطاي: يالله!

هبة: ولن تراها أنت أيضًا، بعدي الطوفان، اقتلني تؤجر.

ببرس (يصرخ صرخة يأس وجزع): يا رحمة الله! (هنا تأتي مريم وصفية من الباب الكبير هارعتين إلى الإيوان ووراءهما سهيل).

صفية: ببرس!

مريم: ببرس!

ببرس: لبيك (وإذ يلمح صفيه يجري إليها ويحتضنها وتعلق مريم بردهه) يا مالكة اللب إن ربى لرحيم كريم.

مريم (ترى هبة الله فتجري إليه تضربه على كتفه): أين أبي يا قاسي الفؤاد؟ قل لي: أين أبي؟

أقطاي (يفتح ذراعيه لمريم): أنا أبوك يا مريم! تعالى يا عائشة، تعالى! تعالى! (يتهجد صوته وبيكى).

مريم: أنت أبي؟

ببرس: أجل أبوك يا مريم، أبوك!

مريم (تجري إلى أقطاي): أبي! (تحتضنه) وافرحتاه!

أقطاي: تعالى يا بنيني (يأخذها إلى المبعد ويجلس فرحاً بها).

ببرس: أين كنت يا صفيه؟

صفية: سل هذا الخائن، سل هذا اللعين (مشيرة إلى هبة الله).

بيبرس (مشيراً إليه): إلى النطع يا سهيل.

سهيل (يجري إليه فيأخذه قسراً): هلم.

صفية: كنا على وشك الرحيل إلى عكا في سفينة أعدها لنا هذا الخائن منذ الصباح.

بيبرس: كيف؟

صفية: لقد اخترقني مخدرة من منزل الأمير فخر الدين.

بيبرس (يلتفت فيرى هبة الله على وشك النزول من الباب الأيسر فيجري مهتاجاً إليه): إذن فلأخطفن روحه بيدي (يقتله عند الباب).

هبة (صارخاً ألمًا واحتساراً): آه ... آه.

أقطاي (للأميرة): كيف جئت يا سيدتي؟

صفية: رأتْ مريم الملك على الشاطئ فنادته فجاءنا ورددنا إلى رحمة الله!

بيبرس: بل ردد الله إلى يا صفية.

(يدخل ملك فرنسا من الباب الأكبر، ومحسن من الباب الأيسر يتبعه سهيل

وإذ يراه الجميع يصيحون).

الجميع: يعيش ربي دوفرانس.

الملك: يعيش حماة النيل.